التجديد في منهجيّة التفسير
بين الزمخشري وسيّد قطب
(دراسة تحليليّة تطبيقيّة مقارنة)

د. محمّد رفعت زنجير *

---

* عضو هيئة التدريس بجامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، كلية التربية والعلوم الأساسية – والجامعة الإسلامية العلمية بماليزيا سابقاً.

ملخص البحث:

هذا بحث في غاية الأهمية حول تفسيرين شهيرين جدا، هما الكشاف للزمخشري، والظلال لسيد قطب، وهو مكون من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، وفيما يلي توضيح لعناصر البحث:

المقدمة: عرضت فيها لأهمية التفسير وكيفية التجديد فيه، وما في كتب التفسير من التجديد والتقليد، ومزية تفسير الكشاف والظلال على ما سواهما من كتب التفسير، وبينت أن هذه الدراسة تريد الكشف عما في فيهما من تجديد منهجي، وكشف الصلة بينهما، وعوامل الاختلاف بينهما، وموقف أهل العلم من كل من التفسيرين، والهدف من الدراسة بيان عوامل الأصالة والتجديد في كل من التفسيرين، وما لصاحبيهما من جهد وفضل في تفسير كتاب الله، والذود عن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اعتمدنا على التفسيرين مباشرة، ثم على الدراسات التي تناولت كلا منهما على حدة.

التمهيد تناولت فيه ستة أمور بين يدي البحث، تحدثت فيها عن تعريف التفسير والتأويل، ومصادر المفسر، واتجاهات التفسير، والتجديد في التفسير، وقضية الإعجاز وصلتها بالتفسير، وضوابط لا بد منها في عملية التفسير، وكانت هذه الأمور بمثابة مدخل ضروري للبحث، من أجل أن يتكامل البحث بشكل منهجي يفيد القارئ والباحث معا.

المبحث الأول: (الزمخشري ومنهجه في التفسير) تحدثت فيه عن مدرسة المعتزلة وانتماء الزمخشري إليها، وعرضت نماذج من تفسير الكشاف يظهر فيها أثر الاعتزال، وقد ناقشت الزمخشري في مسألة أن العقل يقود للإيمان ولو لم يكن هناك رسل، وأن البشر محجوجون به، وبينت أنه لا حجة إلا مع وجود الرسل، لأن العقل قد يتقاصر عن معرفة توحيد الألوهية، والواجبات الشرعية، وذكرت نقد العلماء لمسلك الزمخشري في الاعتزال، ثم عرضت للحديث عن عناية الزمخشري بالبلاغة القرآنية، ثم ذكرت نماذج من تفسير الكشاف يظهر فيها الجانب البلاغي، وذكرت ثناء العلماء على جهود الزمخشري

في الكشاف ومنهجه البلاغي، وبعض الملاحظات العلمية على تفسير الكشاف، ومزايا تفسير الكشاف.

المبحث الثاني: (سيد قطب ومنهجه في التفسير) تحدثت فيه عن منهج سيد قطب في الظلال، وهو منهج يقوم على التصوير الفني الذي استقى مادته من الزمخشري، وذكرت آراء الباحثين في منهج سيد قطب، وموقفه من البلاغيين القدماء، وصلته بالزمخشري، وموقفه من المصطلحات البلاغية، حيث ذكر بعضها، وأعرض عن ذكر معظمها، مكتفيا بتحليل مضمونها، والمنهج السلفي في تفسيره الذي يقوم على الاتباع والمأثور، وشهادة العلماء للظلال وما فيه من مزايا وتجديد منهجي، وبعض المآخذ العلمية على الظلال.

المبحث الثالث: (إعجاز القرآن بين الزمخشري وسيد قطب) عرضت فيه إلى موقف الزمخشري الذي يرى أن الإعجاز قائم في نظم القرآن، مخالفا النظام رأس المعتزلة الذي يرى الإعجاز بالصرفة، [بمعنى أن الله صرف العرب عن محاكاة القرآن، فليس فيه إعجاز من داخله]، وأن العرب قد عجزوا عن الإتيان بمثله رغم قدراتهم البلاغية الفائقة، وهذا هو موقف سيد قطب، بيد أن سيد قطب توسع في ذكر الإعجاز التشريعي، وبرع في الإشارة إلى الإعجاز في نظم آيات التشريع، والتوسع فيه، وهو ما يتحاماه الدارسون للبلاغة عادة، وذلك لصعوبة البحث فيه، فيتناولون الآيات الكونية والقصص القرآني بالتحليل والدراسة دون التشريع، رغم عظمة هذا الجانب وروعته وبراعة القرآن فيه.

المبحث الرابع: (الموازنة بين نماذج من تفسير الكشاف وتفسير في ظلال القرآن) عرضت أربع آيات من سور مختلفة من القرآن الكريم، ووازنت من خلالها بين طريقة الزمخشري وطريقة سيد قطب في التفسير، وبيان جمال القرآن معتمدين على طاقة اللغة، وقدرتهما على تذوق النصوص، ولاحظت هنا أن سيد قطب يتميز عن الزمخشري بأنه يعيش في جو الآية، ولا يغادره إلى مبحث لغوي أو فقهي كما يفعل الزمخشري وبعض المفسرين، ويمتاز بسلاسة العبارة، والتمسك بمذهب الجمهور من السنة، وقد تجلى ذلك في مواقف، منها: قضية إثبات رؤية الخالق عز وجل يوم القيامة، عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة/٢٢-٢٣]حيث أثبت الرؤية سيد قطب متبعا طريقة السلف، بينما استخدم الزمخشري طاقته اللغوية للي معنى الآية، وصرفه إلى معنى انتظار الإنعام، ليوافق منهجه الاعتزالي، فحاد عن الصواب هنا، وقد وضحت ذلك، وقد ابتعد سيد قطب عن ذكر تفريعات المصطلحات البلاغية المتشعبة، وابتعد أيضا عن التعقيد الأسلوبي والمناهج الفلسفية، فكانت هذه ميزات لتفسيره على تفسير الزمخشري.

الخاتمة: أوجزت فيها عملي في البحث، وأهم ما توصلت إليه من نتائج، ومنها: أن إعجاز القرآن قائم في كل عصر، لذلك لم ينقطع التجديد في التفسير عبر القرون، وأن اللغة هي مفتاح دراسة الإعجاز، وقد اعتمد الزمخشري وسيد قطب في تفسيريهما على قدرتهما اللغوية وحسهما الأدبي، فهما من أقطاب الدراسات اللغوية والأدبية في الدراسات القرآنية والتفسير، وقد جددا في هذا المضمار، وفتحا الباب واسعا لمن أراد أن يدرس بلاغة القرآن وإعجازه، وإن كانا يختلفان في المدرسة الفكرية لكل منهما، فالأول معتزلي، والثاني سني سلفي.

وذيلت البحث بعد ذلك بأسماء المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إعداد هذا البحث، ومن الله أستمد العون والتوفيق.

المقدمة:

كتاب الله الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو نداء الله الأخير للإنسان في كل القرون والأزمنة، وكل البلاد والأمكنة، وليس محصورا بزمن معين أو منطقة محددة، أو شعب دون آخر، وإنما هو للإنسان أيا كانت هويته أو جنسيته، وحيثما كان، وفي أي زمان كان، وهذا معلوم للجميع.

ونص الكتاب الكريم ثابت، لا يتغير ولا يتبدل، والدلالات المركزية لهذا النص - وفق معايير العربية - تكاد تكون واحدة بين الجميع. فمن أين أتى هذا الاختلاف في فهم الكتاب المنزل؟، وما فائدته؟.

في اعتقادي أن الاختلاف في الفهم والتفسير بدأ في عصر الصحابة بسبب "تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن: ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم"[(١)]، ومن الطبيعي أن يستمر الخلاف في التفسير في عصر التابعين وما بعده من عصور بعد أن تفرق الصحابة في البلدان، ودب الفساد إلى الألسن، وهو خلاف يرجع إلى تعدد الثقافات والمواهب والعصور والأمكنة والقدرات النفسية للناس بالدرجة الأولى، ولذلك لم تتوقف عملية التفسير لهذا النص الثابت عبر القرون، ففي كل عصر نجد مفسرين، وفي كل مصر كذلك. وهؤلاء المفسرون لا يختلفون في الثوابت والدلالات المركزية للكلام، وإنما يختلفون في الدلالات الهامشية والمعاني التأويلية لذاك الكلام المقدس. وهذا الاختلاف مفيد جدا، فالقرآن كتاب بليغ موجز مركز، خاطب قوما فصحاء في ظروف معينة وأماكن معينة... وقد تغيرت أحوال الناس بعد ذلك ...فأهل مكة والمدينة انتشروا في الأرض... والفصاحة دب إليها الفساد واللحن، والعقل العربي الذي كان لا يعرف

---

(١) د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (١/ ٣٤) دار الكتب الحديثة.

غير الشعر فهو ديوان العرب كما يقال، دبت إليه الثقافات الأخرى، فأصبح لا يفكر بطريقة الشعر والشعراء، وإنما بمنهج الفلاسفة والحكماء... أمور كثيرة تغيرت وباعدت بين الناس وفهمهم لكتاب ربهم. وهنا جاءت وظيفة المفسرين – في كل عصر ومصر – لطي الفجوة بين الناس وفهم القرآن.. ومن ثم كثرت التفاسير وتوالدت، ومنها ما بقي، ومنها ما اندثر! بحسب الظروف والأحوال التي هيأت لتفسير ما أن يبقى، وآخر أن يموت. وقد اعترى هذه التفاسير ما اعتراها من عوامل التجديد والتقليد، والاتباع والابتداع، والخلود والفناء، وقد بذل المفسرون جهودا مشكورة في خدمة كتاب الله، ولم يخل عصر من تفسير فيه جدة أو طرافة، ومن التفاسير التي تحدت الفناء، وبقيت سامقة ذائعة، تفسيران مشهوران:

الأول: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري، وقد اشتهر باسم تفسير الكشاف للزمخشري.

والثاني: (في ظلال القرآن) لسيد قطب.

فما الذي في هذين التفسيرين؟ وما الذي جعلهما يبقيان؟ والأهم من هذا ما الذي جعلهما يبقيان في القمة ضمن تفاسير معدودة كتب لها الخلود... إنها عوامل كثيرة، وفي مقدمتها التجديد.. التجديد القائم على أسس ثابتة من المنهجية العلمية المتولدة عن المعرفة المتكاملة والموهبة الأصيلة، والمكابدة الدائمة، والخبرة الطويلة، والإخلاص للعلم.

فما هي معالم التجديد في كل من هذين التفسيرين؟ وما هي المنهجية المتبعة في كل منهما؟. وهل ثمة وشيجة قربى بين التفسيرين... وما هي؟ وما هي عوامل الاختلاف بين التفسيرين؟ وما موقف أهل العلم من كل منهما؟

هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عليه، معتمدين على معرفتنا بالتفسيرين، وعلى ما كتب حولهما من دراسات!. والهدف من هذه الدراسة بيان عوامل الأصالة والتجديد في التفسيرين، وما لصاحبيهما من جهد وفضل في تفسير كتاب الله، وأن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخبو نورها عبر القرون، وأن العلماء وحدهم هم الذين يذودون عن هذه المعجزة في كل

عصر، وهم الذين يمسحون عنها كل ما تراكم حولها من غبار التأويلات الباطلة، والمفاهيم المنحرفة، والاجتهادات المضللة عبر القرون. فإذا معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم جديدة كأنها تتنزل اليوم، ولذلك كان العلماء ورثة الأنبياء.

ولعل في هذه الدراسة أيضا حافزا للأجيال اللاحقة بأن تقدم على كتاب الله، فتقرأه، وتتدبره، وتفهم معانيه، وتمضي به من جديد، كما مضى سلفها الصالح على هدى القرآن، فكتب الله لهم العزة والمجد، وحباهم الفضل والنصر، وحفظهم من الهزيمة والخذلان. ولا ننكر أن موضوع هذه الدراسة كبير، لا تحيط به صفحات قليلة، بل يحتاج إلى دراسة تفصيلية مستقلة، ولكن هذا لا يمنع من تقديم صوى[٢] يستفيد منها الباحثون، ووضع إطار عام لهذا الموضوع الواسع ليطلع عليه المثقفون، وما لا يدرك كله لا يترك جله. ومما دفعني إلى كتابة هذا البحث أني لا أجد حتى اليوم دراسة توازن بين منهج الزمخشري وسيد قطب في التفسير، على رغم التقارب بينهما، فقد اعتمدا على طاقات اللغة وكنوزها التعبيرية الموجودة في القرآن، ثم اختلفا بعد ذلك في منهجهيما، فالأول معتزلي والثاني سلفي. ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتسد ثغرة ما كانت لتسدها تلك الدراسات المستفيضة حول الزمخشري وسيد قطب، فقد درس كل منهما مستقلا عن الآخر، ولم تجر موازنة دقيقة للقواسم المشتركة بينهما في تفسير كتاب الله عز وجل. وقد رأينا أن تبدأ هذه الدراسة بتمهيد نعرف فيه بعلم التفسير وبعض المصطلحات والقضايا المتعلقة به، يلي ذلك أربعة مباحث، الأول ويتناول: الحديث عن الزمخشري ومنهجه في التفسير، ثم الثاني، ويتناول الحديث عن سيد قطب ومنهجه في التفسير، ونتناول بعد ذلك في المبحث الثالث قضية إعجاز القرآن بين الزمخشري وسيد قطب، ثم نجري في المبحث الرابع موازنة بين نماذج من تفسيري الكشاف والظلال، وبعد ذلك تكون الخاتمة، وفيها نذكر النتائج وخلاصة البحث، وبالتمهيد نبدأ:

---

(٢) الصوى: جمع الصُوَة، حجر يكون علامة في الطريق. انظر: القاموس المحيط، مادة (صوى).

تمهيد:

ونتناول فيه ستة أمور بين يدي البحث:

أولا: تعريف التفسير والتأويل.

قبل الخوض في البحث لابد من التفريق بين مصطلحي التفسير والتأويل، وقد عرض لذلك العلماء، قال الراغب: "الفَسْر: إظهار المعنى المعقول..والتفسير في المبالغة كالفسر، والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها"(٣).

وأما التأويل، فقد عرفه الراغب في قوله: "التأويل من الأوْل، أي الرجوع إلى الأصل، ومنه: الموئل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علما أو فعلا"(٤)

وقال البغوي: "التأويل: صرف الآية إلى معنى محتمل، موافق لما قبلها، وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط... أما التفسير: وهو الكلام في أسباب نزول الآية، وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلا بالسماع، بعد ثبوته من طريق النقل"(٥).

وقال أبو حيان الأندلسي في تعريف التفسير اصطلاحا: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك"(٦)، ويقصد بالتتمات علم الناسخ والمنسوخ ونحوه.

وذكر الطوفي أقوالا في تعريف التفسير والتأويل منها: أنهما مترادفان،

---

(٣) المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة (فسر)، دار المعرفة، بيروت.

(٤) المصدر السابق، مادة (أول).

(٥) تفسير معالم التنزيل، تحقيق محمد النمر مع آخرين، (١/٤٦)، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٦) تفسير البحر المحيط، (١/١٣-١٤) مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

وقيل: التأويل أعم، لجريانه في الكلام وغيره، وقالَ عقب ذلك: "ويجوز استعمال أحدهما موضع الآخر مجازا"[٧]

وبهذا تبين أن كلمة التفسير أكثر شمولا من كلمة التأويل على رأي الراغب، وهناك من يرى أن كلمة التأويل أشمل من التفسير كما ذكر الطوفي، والناس اليوم لا يكادون يفرقون بين المصطلحين، وكأنهما شيء واحدا، وذلك بسبب تباعد الأزمان وتداخل المصطلحات، إلا أن بين المصطلحين فرقا كما وضحنا فيما سلف، ونحن نميل في عصرنا إلى استعمال كلمة تفسير لأنها أكثر شيوعا وأوضح دلالة.!.

ثانيا: مصادر المفسر

لابد لمفسر القرآن من علوم يبرع بها ويتعاطاها. وقد حددها الطوفي بما يلي:

١ – علم الغريب، ٢– علم التصريف، ٣-علم الإعراب، ٤- علم القراءات، علم الموجودات أو علم الحكمة، ٤- علم أصول الدين، ٥- علم التاريخ، ٦- علم الوعظ، ٧- علم الناسخ والمنسوخ، ٨- علم أصول الفقه. ٩- علم الفقه، ١٠- علم المعاني، ١١- علم البيان.[٨]

والسمين الحلبي يرى أن أوثق العلوم بكتاب الله بعد تجويد ألفاظه بالتلاوة خمسة علوم، وهي: علم الإعراب، علم التصريف، علم اللغة، علم المعاني، علم البيان[٩].

وقد ذكر السيوطي خمسة عشر علما للتفسير، منها: العلوم التي سبق

---

(٧) الإكسير في علم التفسير، تحقيق د. عبد القادر حسين، ص (٢)، مكتبة الآداب، القاهرة.
(٨) الإكسير في علم التفسير، تحقيق د. عبد القادر حسين، ص (١٧-٢٢)، (مصدر سابق).
(٩) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد الخراط، (١/ ٤) دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

ذكرها، وأضاف عليها: ١ - علم البديع، ٢ - أسباب النزول. ٣ - الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم. ٤ - علم الموهبة(١٠).

وعلم البديع يعتبره المتقدمون من العلماء تابعا للمعاني والبيان، ولذلك لم يذكره بعضهم كالشيخ عبد القاهر والسكاكي بشكل مستقل، وعلم أسباب النزول يندرج مع علم التاريخ والسيرة، وأما الموهبة فهي عطاء من الله، ولكن يصقلها الدربة والممارسة، وهذا هو قصد السيوطي، وهي ليست علما بحد ذاتها، لذلك تنحصر إضافة السيوطي هنا بعلم الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

وفي العصر الحديث اشترط العلماء شروطا جديدة للمفسر، منها: ما ذكره السيد محمد رشيد رضا وهي: علم أحوال البشر، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن(١١).

ولو تأملنا في هذه العلوم وجدنا أن نصفها تقريبا يدور حول اللغة وعلومها، وهذا يؤكد على أهمية العربية في فهم القرآن وتفسيره، فهي مفتاح القرآن بلا ريب، ولذلك جعل كثير من فقهاء المسلمين تعلم العربية فرضا على المسلمين، ومنهم: الإمام ابن تيمية حيث قال: "..وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب"(١٢).

ثالثا: اتجاهات التفسير.

للتفسير ثلاثة اتجاهات شهيرة:

الأول: التفسير بالمأثور، وهو تفسير محمود عند الجمهور.

---

(١٠) انظر: المصدر نفسه (٢/ ١٧٤، ١٨٠-١٨١).

(١١) انظر: تفسير المنار، (١/ ٢٠-٢١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

(١٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق عصام حرستاني ومحمد إبراهيم الزعلي، ص (٢٤٢)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣/ ١٩٩٣م.

الثاني: التفسير بالرأي، وهو مذموم عند بعضهم، وذلك إذا كان الرأي نابعا من هوى، ولا يستند إلى دليل، وقد بالغ الإمام ابن تيمية في النكير على من فسر القرآن برأيه من أهل البدع، حيث قال: "من فسر القرآن أو الحديث، وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين، فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار في دين الإسلام"(١٣).

الثالث: تفسير القرآن بحسب اللغة، وهو مقبول بشروط، وعنه يقول الزركشي: "مالم يرد فيه نقل عن المفسرين، وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالاتها بحسب السياق"(١٤). وتركيز الزركشي على السياق هنا، وأن تفسر الألفاظ بحسبه، لئلا يقع المفسر في الخطأ، وقد أنكر ابن تيمية على الذين "راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام"(١٥).

وهنالك اتجاهات أخرى اتبعتها الفرق الإسلامية مثل: الصوفية والشيعة والباطنية وغيرها، وأساليب هؤلاء مختلفة، واتجاهاتهم كثيرة، وللعلماء مواقف مختلفة إزاء تلك الاتجاهات، ومعظمهم يميلون إلى رفض تلك الاتجاهات، لأنها لا تقوم على أسس من علم الرواية أو الدراية.

رابعا: التجديد في التفسير:

قد يكون التجديد في كل علم صعبا، بيد أنه أكثر صعوبة في التفسير. وذلك أن المفسر هنا يتعامل مع كتاب مقدس فيه كلام الله عز وجل، فيجب أن

---

(١٣) عبد الرحمن بن قاسم النجدي، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، (١٣/ ٢٤٣)، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

(١٤) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، خرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، (٢/ ١٨٩) دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(١٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٥٥-٣٥٦)، (مصدر سابق).

يكون في غاية الحيطة والحذر، وأن يلم بعلوم اللغة والدين، وأن لا يقول برأيه بمجرد الهوى، فلابد من الاستنباط الذي تعاضده الأدلة، فالعلم كما يقول ابن تيمية: "العلم: إما نقل مصدق، أو استدلال محقق"[١٦]. وقد شغف جمهور الأمة بالتفسير بالمأثور، فجمعوه ودونوه، وتفسير الطبري جامع في هذا، فهو مليء بالمأثور، ولذلك وصفه ابن تيمية بأنه: "من أجل التفاسير وأعظمها قدرا"[١٧]. وقال عنه الدكتور محمد حسين الذهبي: "يعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي"[١٨]، وننوه – هنا – بأن الطبري – رحمه الله – في تفسيره (جامع البيان في تفسير القرآن) لم يقتصر على النقل والرواية فقط، وإنما اعتمد على اللغة أيضا، وكان يوازن بين الأقوال أحيانا. وأما التفسير بالرأي فهو تفسير مذموم عند بعضهم[١٩].

ولم يبق إلا التفسير من حيث اللغة، وهو من حيث المفردات قد كتب فيه كثير من الكتب المعروفة، مثل مفردات الراغب الأصفهاني وغيرها، وبقي التفسير من حيث الجملة ومكوناتها، والنص بكامله، وهذا باب مفتوح، وهو عماد علم التفسير، ومنه ولج كثير من المفسرين كالطبري، والزمخشري، ومحمد رشيد رضا، وسيد قطب، وغيرهم، إلى عالم القرآن الكريم، وكان لشهرة تفاسيرهم ما كان!، وهذا النوع من التفسير أكثر وضوحا عند بعض المفسرين المعنيين أساسا باللغة والأدب – مثل الزمخشري وسيد قطب منه – عند غيرهم.

وقد أشار العلماء إلى ما ذكرته، فالدكتور الذهبي يقول بصدد جمود البحث في التفسير: "لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله،

---

(١٦) المصدر السابق (١٣/ ٣٤٤).
(١٧) نفسه (١٣/ ٣٦١).
(١٨) التفسير والمفسرون، (١/ ٢٠٧)، دار الكتب الحديثة.
(١٩) قال الزركشي في البرهان (٢/ ١٧٨، ١٧٩) مبينا حكم التفسير بالرأي، وأنواع الرأي ما يلي: "ولايجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل.... وأما الرأي الذي يسنده برهان فالحكم به في النوازل جائز".

والكشف عن معانيه ومراميه... والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يداخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير قد وفاه هؤلاء الأقدمون حقه من البحث والتحقيق"(٢٠). وليس يعني هذا إغلاق باب التجديد في التفسير، فهو باب كان وسيبقى مفتوحا، لأن القرآن الكريم مستوعب لكل العلوم وشتى العصور، وفي هذا الصدد يقول الزركشي: "وفي القرآن علم الأولين والآخرين، وما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهمه الله تعالى"(٢١).

ويفسر الإمام الغزالي هذه القضية، حيث يقول: "وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها..فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه..والسماع لابد منه في ظاهر التفسير أولا، ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط"(٢٢).

والاتساع والفهم والاستنباط هو ما سبق أن أطلق عليه مصطلح التأويل.. فالتأويل هو المعول عليه في مجال التجديد، لأنه يتجاوز تفسير اللفظ نحو المعنى العام للجملة وللنص بأكمله. ومعاني القرآن متشعبة، ولا حصر لها، والتجديد قائم بها أبدا، ولذلك قال الرافعي: "بيد أن القرآن كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز، ونحن قد قلنا في غير الجهات التي كتب فيها كل من قبلنا، وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به، إن ذلك على الله يسير"(٢٣).

خامسا: قضية الإعجاز وصلتها بالتفسير

لعل أهم قضية كانت تشغل علماء الأمة عبر العصور هي إعجاز القرآن، فالقرآن معجز بنظمه، ومفرداته، ومعانيه، وجمله، وهو معجز بأدائه، وترتيب

---

(٢٠) د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (٢/ ٤٩٥)، دار الكتب الحديثة. (مرجع سابق).
(٢١) البرهان في علوم القرآن، (٢/ ١٨٩)، (مصدر سابق).
(٢٢) إحياء علوم الدين، (١/ ٤٣٢-٤٣٥)، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٢٣) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص(٨)، دار الكتب العربي، بيروت.

حروفه، ونبراتها، ونغماتها، وجرسها، وهو معجز بتشريعه، وأخباره، وتأثيره، وغير ذلك.... وقد كان العلماء عند ما يتناولون القرآن بالبحث والدراسة يحاولون أن يعرفوا أسرار الإعجاز، أو دلائله، وكتبوا في ذلك كثيرا، واستمرت الكتابة حتى العصر الحديث. والقضية الأولى في إعجاز القرآن هي في لغته، قال الإمام الخطابي: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمنا أصح المعاني"(٢٤)

وقد أسهمت قضية إعجاز القرآن بتنشيط عملية التأويل للنص القرآني عبر العصور، واحتلت مكانا هاما في تفسير الزمخشري ومن تلاه من المفسرين حتى يومنا هذا(٢٥).

سادسا: ضوابط لابد منها في التفسير

ثمة ضوابط لابد منها في التعامل مع القرآن تفسيرا أو تأويلا، وأهمها الإلمام بالتفسير المأثور، ومعرفة علوم القرآن الكريم، وقواعد اللغة العربية، وقوانين بلاغتها، وذلك حتى يكون التفسير قائما على أسس متينة من آثار نقلية صادقة، وركائز لغوية صحيحة، وإلا كان الهوى والضلال، ولذلك نعى الدكتور الذهبي رحمه الله على بعض المفسرين المحدثين تحريفهم لكتاب الله وإلحادهم فيه، يقول: "اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين، ويرميهم جميعا بالسفه والغفلة، ثم طلع على الناس بجديده في تفسير كتاب الله، جديد لا تقره

---

(٢٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي) تحقيق محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، ص (٢٧)، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

(٢٥) انظر في هذا الصدد كتاب: (فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر) لنعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م.

لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين"[٢٦]. ويبين الدكتور الذهبي سبب ضلال هؤلاء قائلا: "هؤلاء جميعا خاضوا في القرآن على عماية، فلم يراعوا في فهم قوانينه البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق"[٢٧].

وما حصل في العصر الحديث من مخالفة وانحراف في التفسير، له جذوره التاريخية، فابن تيمية يحدثنا مثلا عن قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها، دون النظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، وهؤلاء صنفان: (تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على مالم يدل عليه ولم يرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلا، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول)[٢٨]. ويعبر ابن تيمية عن حال هؤلاء فهم "مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه... وهذا كالمعتزلة فإنهم من أعظم الناس كلاما وجدالا"[٢٩].

إذن فالتعامل مع النص القرآني تفسيرا وتأويلا يجب أن لا يتجاوز الإطار الذي يحتمله النص، وكذلك لا ينبغي تضييق المعاني القرآنية وتحجيمها، وإنما نتعامل مع القرآن بحدود ما تحتمله لغة القرآن، وما يؤازرها مما ورد من تفسير مأثور.

هذه مقدمات لابد منها قبل أن ندخل في موضوعنا مباشرة، وذلك لأن

---

(٢٦) التفسير والمفسرون (٢/٥٢٢) (مرجع سابق).
(٢٧) نفسه (٢/٥٢٣).
(٢٨) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٥٦) (مصدر سابق).
(٢٩) المصدر السابق (١٣/٣٥٥-٣٥٦).

الزمخشري وسيد قطب هما من أبرز المفسرين الذين كانت لهم جهود مميزة في تجديد التفسير، وقد اعتمد كل منهما على ما منحه الله من قوة فكرية، وثروة لغوية، وموهبة أدبية، وحاولا توظيف ذلك كله في تبيان جمال القرآن واستجلاء إعجازه. وكان للناس مواقف مختلفة إزاء كل واحد منهما، وهو ما سنحاول تجليته في هذا البحث، وهذا التمهيد يمثل إضاءة أولية بين يدي البحث.

المبحث الأول:
(الزمخشري ومنهجه في التفسير)

يعد الإمام جار الله الزمخشري (ت٥٣٧هـ)[٣٠] أحد أعلام التفسير بلا ريب، ويعد تفسيره (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) من أهم التفاسير للقرآن الكريم. وقد لاقى هذا التفسير رواجا في عصره وما تلاه من عصور، فهو أكثر التفاسير عناية بالبلاغة القرآنية، وهو أول من حاول تطبيق نظرية النظم للشيخ عبد القاهر الجرجاني من خلال تفسيره للقرآن الكريم. ويمكن تحديد أهم المعالم المنهجية لهذا التفسير في أمرين اثنين:

الأول: عنايته بالبلاغة القرآنية ومبحث إعجاز القرآن، وهذا هو الذي رفع تفسير الكشاف إلى سماء المجد.

والثاني: تأويل الآيات القرآنية بما يوافق مذهب المعتزلة، وهذا هو الذي شان تفسيره، وأنقص من قيمته العلمية.

ونظرا لأن ما يهمنا في هذا البحث هو موضوع التجديد في التفسير بين عملاقين من عمالقة التفسير، لذا سوف نولي موضوع البلاغة والإعجاز عناية خاصة، فهو القاسم المشترك بين تفسير الكشاف وتفسير الظلال، وسوف نستعرض بإيجاز ملامح تفسير الكشاف بشكل عام وموقف العلماء منه، ونبدأ بالحديث عن المعتزلة الذين ينتمي إليهم الزمخشري.

أولا: مدرسة المعتزلة وانتماء الزمخشري إليها.

ينتمي الزمخشري فكريا إلى مدرسة المعتزلة، وهي مدرسة قامت بغرض الدفاع عن الدين، حيث (إن كثيرين ممن دخلوا في الإسلام بعد الفتح، كانوا من

---

(٣٠) انظر ترجمة الزمخشري في: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٩/١٢٦) دار المأمون، الطبعة الأخيرة. والبداية والنهاية لابن كثير، (١٢/٢١٩) مطبعة السعادة، مصر. وبغية الوعاة للسيوطي، (٢/٢٧٩) مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م. ومعجم المؤلفين لكحالة (١٢/١٨٦). مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي . بيروت.

ديانات مختلفة: يهودية ونصرانية وزرداشتية وبراهمة وصابئة ودهريين وغيرهم، وكانوا قد نشأوا على تعلم هذه الديانات وشبوا عليها، وكان ممن أسلم: علماء في هذه الديانات، فلما اطمأنوا وهدأت نفوسهم، واستقرت على الدين الجديد وهو الإسلام، أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم، ويثيرون مسائل من مسائله، ويلبسونها لباس الإسلام)[٣١]. فكان دور المعتزلة هو في مواجهة هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام ممن يعتنقه من أبناء الأمم الأخرى، ثم راحوا يواجهون كل فكرة تناقض الإسلام بعد ذلك، سواء أكانت رائجة على ألسنة من يعتنقون الإسلام من أبناء الشعوب الأخرى، أم كانت واردة على المجتمع الإسلامي من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، أم تسربت من الفكر الإغريقي والفارسي عبر عملية الترجمة التي نشطت في العصر العباسي بسبب تشجيع الخلفاء عليها.

ورأس هذه الفرقة هو واصل بن عطاء كما هو معلوم، وكان في البداية من تلاميذ الحسن البصري ثم انشق عنه، وبدأ بتكوين هذه الفرقة، (وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[٣٢]. وكان لابد لهذه الفرقة من ركائز ترتكز إليها في حماية فلسفتها، حيث: (قد أراد المعتزلة أن يحوطوا تعاليمهم التي يرونها مبادئ الإسلام فتسلحوا لها بالأسلحة التي تذود عن حياضها، وتصون حرمها، وكان أخطر هذه الأسلحة عندهم سلاحين: الفلسفة واللغة)[٣٣].

من هذه المدرسة التي تعنى بالفلسفة واللغة تخرج جار الله الزمخشري

---

(٣١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، (٧/٣) لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، الطبعة الثالثة.

(٣٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥٧/١٣) (مصدر سابق).

(٣٣) د. مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، ص (٦٩) دار المعارف، الطبعة الثالثة.

ووضع تفسيره الكشاف، وسنقدم في الفقرة التالية نماذج من كشافه تبين تأثره بمدرسة المعتزلة.

ثانيا: نماذج من تفسير الكشاف يظهر فيها أثر الاعتزال

١ - قال الزمخشري عند الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء/٤٨]: "فإن قلت: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة، فما وجه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾. قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعا موجهين إلى قوله تعالى ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك، على أن المراد بالأول من لم يتب، وبالثاني من تاب "[٣٤].

وقد علق الشيخ محمد عليان على قول الزمخشري: (وأنه لايغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة) بقوله: "هذا عند المعتزلة، وأما عند أهل السنة فتغفر بها . أي بالتوبة . وبالشفاعة، وبمجرد الفضل"[٣٥].

٢ - وقال الزمخشري عند الآية: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ [النساء/١٥٣]: "بظلمهم بسبب سؤالهم الرؤية، ولو طلبوا أمرا جائزا لما سموا ظالمين، ولما أخذتهم الصاعقة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى، فلم يسمه ظالما ولا رماه بالصاعقة، فتبا للمشبهة ورميا بالصواعق"[٣٦]. وقد عقب

---

(٣٤) تفسير الكشاف للزمخشري، صححه محمد عبد السلام شاهين، (١/ ٥٠٩ - ٥١٠) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٣٥) حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف، مطبوعة مع الكشاف (١/ ٥٠٩).

(٣٦) تفسير الكشاف (١/ ٥٧٢).

الشيخ محمد عليان في الحاشية بقوله: "قوله: فتبا للمشبهة ورميا بالصواعق يعني أهل السنة، حيث أجازوا على الله الرؤية كما حقق في محله، وغفر الله للمؤمن – يقصد الزمخشري – يسيء للمؤمنين"[٣٧].

٣ – وقال الزمخشري عند الآية ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء/١٦٥]: "فإن قلت: كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة؟ والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة؟ ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟ قلت: الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد"[٣٨].

ويقصد الزمخشري بأهل العدل والتوحيد فرقة المعتزلة. والحق أن التفكر في الكون وما فيه من آيات الله، قد يقود العبد إلى معرفة وحدانية الربوبية، وأما وحدانية الألوهية وهي توحيد الله بأفعال العباد، فقد أخطأ فيها معظم الخلق، فصرفوا العبادة لغير الله، ومعرفة هذا اللون من التوحيد لا تكون إلا بالرسل حتى يبينوا الحق من الباطل. ثم إن معرفة الله ليست هي الهدف الوحيد للرسل، وإنما هناك أهداف أخرى وهي تبيان النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي بها قوام حياة الناس، وهذه لا تتم إلا بالرسل. وعليه فإن حجة الله على عباده لا تكون كاملة إلا بابتعاث الرسل عليهم السلام. وأما الكون فهو يدل على وجود الخالق وبديع صنعه دلالة أولية ليس أكثر. ويمكن توظيف معرفة الكون في معرفة الخالق ومن ثم في معرفة الرسل وإثبات بقية أركان الإيمان.

ثالثا: نقد العلماء لمسلك الزمخشري في الاعتزال

من تلك الأمثلة اليسيرة التي قدمناها في الفقرة السابقة يتبين عسف الزمخشري مع أهل السنة، وحرصه على توجيه الآيات بما يوافق مذهب

---

(٣٧) نفسه.
(٣٨) المصدر السابق (١/٥٧٨-٥٧٩).

المعتزلة، وقد عاب عليه العلماء ذلك. يقول ابن خلدون: "ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير - يقصد التفاسير اللغوية -: كتاب الكشاف للزمخشري، من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على مايراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم"(٣٩).

فالبلاغة كما يراها ابن خلدون تبعا للطيبي إنما تكون بما يوافق مذهب أهل السنة وليس المعتزلة، وقد أشار إلى تمحل الزمخشري باحث معاصر هو الدكتور محمد أبو موسى حيث قال: "والحق أن الزمخشري كان يتعسف أحايين كثيرة، ويتمحل في إخضاع النص ودلالته إلى قواعد شيعته، وإذا أردت أن أعرض صورا لهذا التمحل، فإن حاشية ابن المنير يصلح أكثرها شاهدا على هذه الدعوى، وكذلك كتاب التمييز وكثير من كتب أهل السنة"(٤٠).

على أن الزمخشري ربما تابع أهل السنة في بعض المواضع، من ذلك قوله عند الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن

---

(٣٩) مقدمة ابن خلدون، ص (٤٤٠) دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤م.

(٤٠) د. محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص (١٠١) مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

﴿يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ [النساء/ ١٥٠]: "ومعنى اتخاذهم بين ذلك سبيلا: أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر... وقد أخطأوا، فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان"[٤١]. وقد عقب الشيخ محمد عليان على ذلك قائلا: "فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان هذا عند أهل السنة، أما عند المعتزلة ففاعل الكبيرة الذي يموت بلا توبة لا هو مؤمن ولا هو كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين، فتدبر!"[٤٢].

رابعا: عناية الزمخشري بالبلاغة القرآنية.

عني الزمخشري بالبلاغة القرآنية أيما عناية، وجعل إدراكها هو المدخل الحقيقي لفهم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم المتمثلة بالقرآن الكريم، ولا أدل على هذه العناية من قوله في خطبة الكشاف: "ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف سلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية[٤٣] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني والبيان"[٤٤].

---

(٤١) تفسير الكشاف (١/ ٥٧٠) (مصدر سابق).

(٤٢) نفسه.

(٤٣) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي أحد بلغاء الدهر، خطيب يضرب به المثل، يقال: أبلغ من ابن القرية، والقرية أمه، قتله الحجاج في فتنة ابن الأشعث سنة (٨٤هـ) انظر: الأعلام، للزركلي، (٢/ ٣٧)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.

(٤٤) المصدر السابق (١/ ٧).

وبهذا وضح أن البلاغة ليست علما مقحما على النص القرآني، وإنما هي وسيلة إيضاح لهذا النص بعد أن تباعد الناس من عهد الرسالة، وانحرفت الملكات والأذواق.

خامسا: نماذج من تفسير الكشاف يظهر فيها الجانب البلاغي.

بعد أن قدمنا سابقا نماذج من تفسير الزمخشري تبرز وجهة الاعتزال في تفسيره، نود أن نعرض نماذج أخرى تبرز الناحية البلاغية في ذلك التفسير البديع، وهذه هي:

١ - جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة/١-٢]: "ومحل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر مع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لذلك، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبرا عنه، ويجوز أن ينصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف، والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة، أن يضرب عن هذه المحال صفحا، وأن يقال: إن قوله ﴿الٓمٓ﴾ جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. و ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ جملة ثانية. و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة. و ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدي به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريرا لجهة التحدي، وشدا من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ قال: في حجة تتبختر اتضاحا، وفي شبهة تتضاءل افتضاحا. ثم أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم لم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السري، من نكتة ذات جزالة،

ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض على الظرف، وفي الرابعة: "الحذف، ووضع المصدر الذي هو (هدى) موضع الوصف الذي هو: هدى، وإيراده منكرا، والإيجاز في ذكر المتقين"(٤٥). وهذا النص يبرز قدرة الزمخشري في إبراز التماسك والوحدة العضوية في نظم الآيات القرآنية.

٢ - وقال الزمخشري عند الآية ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ...﴾ [البقرة/٢٦٦]: "فإن قلت: كيف قال: (جنة من نخيل وأعناب) ثم قال: (له فيها من كل الثمرات)؟: قلت: النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر، وأكثرها منافع، خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليبا لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات"(٤٦). والبلاغيون يطلقون على هذه الطريقة من التعبيرين مصطلح (ذكر العام بعد الخاص) وذلك للعناية بشأن الخاص فكأنه ذكر مرتين، وهو من مباحث الإطناب.

٣ - وقال الزمخشري عند الآية: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء/١٣٨]: "وضع (بشر) مكان أخبر تهكما بهم"(٤٧). وهذا الأسلوب يعرف عند البلاغيين بالاستعارة التهكمية.

٤ - وقال عند الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة/١]: "يقال وفى بالعهد وأوفى به، ومنه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة/١٧٧]. والعقد: العهد الموثق، شبه بعقد الحبل ونحوه، قال الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف"(٤٨).

---

(٤٥) تفسير الكشاف (٤٦/١) (مصدر سابق).
(٤٦) المصدر السابق (٣٠٩/١).
(٤٧) المصدر السابق (٥٦٥/١).
(٤٨) المصدر السابق (٥٨٨/١-٥٨٩).

وهذا الأسلوب يعرف بالاستعارة التصريحية عند البلاغيين حيث أطلق لفظ العقد على العهد على سبيل الاستعارة، والاستعارة تقوم في الأصل على التشبيه، وقد تسامح الزمخشري في ذكر المصطلح البلاغي هنا.

هذه مجرد نماذج، قدمناها، لتعطي صورة عن جهد الزمخشري وأسلوبه في عرض البلاغة القرآنية، والزمخشري لم يكن مطبقا لقواعد البلاغة في تفسيره وحسب، وإنما كان يشرح تلك القواعد ويعلمها للقارئ وقد كان يفصل في المباحث البلاغية في أول تفسيره، لأنه يريد أن يؤسس عليها في بقية الأجزاء، ومن أمثلة ذلك حديثه عن التشبيه والاستعارة وغيرها في تفسير مطلع سورة البقرة(٤٩).

سادسا: ثناء العلماء على جهود الزمخشري البلاغية في الكشاف.

أثار منهج الزمخشري في عرض البلاغة القرآنية إعجاب العلماء، وهذه بعض شهاداتهم:

١ - يقول السيوطي بعد ذكر قدماء المفسرين: "ثم جاءت فرقة أصحاب النظر في علوم البلاغة التي يدرك بها وجه الإعجاز، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة، ولذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب، ولما علم مصنفه أنه بهذا الوصف قد تجلى، قال تحدثا بنعمة ربه وشكرا، وهو الكتاب الذي قال المصنف فيه يمدحه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمر الله مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وقد نبه في خطبته مشيرا إلى ما يجب في هذا الباب من الأوصاف، ولقد صدق وبر، ورسخ نظامه في القلوب وقر"(٥٠).

---

(٤٩) انظر المصدر السابق (١/ ٧٩-٩٥).

(٥٠) من كشف الظنون (٢/ ١٤٧٦) (مصدر سابق).

٢ - وقال حاجي خليفة: "ولما كان كتاب الكشاف هو الكامل في هذا الفن اشتهر في الآفاق، واعتنى به الأئمة المحققون بالكتابة عليه"[(٥١)].

٣ - وقال الدكتور محمد حسين الذهبي: "وأما قيمة هذا التفسير . فهو بصرف النظر عما فيه من اعتزال . تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن الكريم، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، ولاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم. وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوبا جميلا، لفت إليه أنظار العلماء، وعلق به قلوب المفسرين"[(٥٢)].

أما الإمام ابن تيمية - وهو المعروف بتشدده في محاربة البدع - فيعتبر أن تفسير الزمخشري فيه بدعة. يقول: "وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري"[(٥٣)]. ولكن هذه البدعة في رأي ابن تيمية معفو عنها، يقول: "وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا، وإن كان مجتهدا مغفورا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب"[(٥٤)].

وهذا الموقف من ابن تيمية بالنسبة إلى تفسير الزمخشري يعد في غاية التسامح، نظرا لما عرف به ابن تيمية من رفض البدع ومقاومة لكل منهج يخالف ما كان عليه السلف الصالح، سواء كان ذلك في العلم أو الفهم أو العبادة.

---

(٥١) المصدر السابق (٢/١٤٧٧).
(٥٢) التفسير والمفسرون (١/٤٣٣) (مرجع سابق).
(٥٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٦١) (مصدر سابق).
(٥٤) المصدر السابق نفسه.

سابعا: بعض الملاحظات العلمية على تفسير الكشاف.

على الرغم مما قام به الزمخشري من تجديد في التفسير ومنهجية التعامل مع كتاب الله، فإن ثمة ملاحظات أخرى على تفسيره، وقد بينها العلماء والباحثون، منها:

١ - ذكره لبعض الأحاديث الموضوعة في كتابه، وفي ذلك يقول الدكتور محمد حسين الذهبي ناقدا البيضاوي الذي اتبع الزمخشري فذكر هذه الأحاديث في تفسيره أيضا: "كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثا في فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة"[٥٥].

٢ - تضخيمه لحرية العقل في فهم الدين، وفي ذلك يقول الدكتور مصطفى الصاوي: "وأكبر ما يوجه إلى منهجه من نقد هو أنه لم يعرف حدود العقل، فحكمه في كل مجال من مجالات الدين، وتلك بطبيعتها تقتضي الإيمان بالغيب، والتسليم المطمئن، مع التحكيم الواعي للعقل فيما له مجال في ارتياده"[٥٦].

٣ - ونظرته إلى الإعجاز كانت نظرة جزئية وليست متكاملة، يقول الدكتور مصطفى الصاوي في هذا الصدد: "فقد كان يساير ما اتسم به البحث البلاغي على مدى العصور، وهو النظرة الجزئية إلى العبارة أو العبارتين في النص الأدبي، لا تعدوه إلى العمل الأدبي كله، حقا قد ظفر الزمخشري بنتائج ذات بال من وقفاته الجمالية القصيرة، ولكن ما كان يفيده من تحليل للنص القرآني كاملا كان يصل به إلى نتائج أكثر قيمة"[٥٧].

---

(٥٥) التفسير والمفسرون (١/٢٩٨) (مرجع سابق).
(٥٦) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، ص (٣٠٠) (مرجع سابق).
(٥٧) المرجع السابق نفسه.

وكلام الدكتور الصاوي – هنا – فيه نظر، لأنه ينقد الزمخشري من خلال النظريات النقدية والبلاغية الحديثة، والإنصاف يقتضي النظر إلى إضافات الزمخشري البلاغية النوعية قياسا إلى عصره، وهي إضافات ذات بال.

٤ – وهناك مآخذ على أسلوب الزمخشري ذكرها الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور حيث قال عنه: "فإن أسلوبه البياني قد جاء متثاقلا مفككا، ومواضعه متفاوتة، وتعبيره ثقيلا كزا، ترهقه كلفة الصنعة مع نبوة الطبع"(٥٨). والحقيقة أن هذا الكلام فيه إجحاف بحق الزمخشري وأسلوبه، والعجب أن ابن عاشور امتدح أسلوب الزمخشري أجمل مديح حين قال: "واعتمد في تصنيفه – أي الكشاف – على ما يشعر به مكتملا في نفسه من المعارف والملكات، المعتمدة على التكون الأدبي اللغوي الصحيح، وإن المطالع لما تتضمن إشارته إلى ذلك من كلامه في خطبة الكشاف ليكاد يهز كلامه من عطفيه حتى يتمايل لتمايله معجبا"(٥٩). فكيف يهتز المرء لكلام الزمخشري إذا كان كلامه متثاقلا مفككا؟!

٥ – وربما شطح الزمخشري "بعقله فيضع الرسل تحت مجهر العقل ناقدا لهم لأنهم بشر، وتند منه عبارات لا تليق في حق رسل الله"(٦٠). من ذلك قوله عند الآية ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود/ ٤٦] بحق نوح عليه السلام: "وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة، ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين"(٦١). ومعاذ الله أن يكون هذا مراد الآية.. فإن نوحا من أولي العزم من الرسل، ومقامه عند الله عظيم، وما وجدنا آية في كتاب الله إلا وتعظم الرسل وتمدحهم، فكيف يتفق فهم الزمخشري هنا مع أدب القرآن الكريم في خطاب الله لأنبيائه؟

---

(٥٨) محمد الفاضل ابن عاشور: التفسير ورجاله، ص (٩٣) دار الكتب الشرقية، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

(٥٩) المرجع السابق، ص (٨٣).

(٦٠) الصاوي، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، ص (٩٨) (مرجع سابق).

(٦١) تفسير ا لكشاف (٣٨٥) (مرجع سابق).

ثامنا: بعض مزايا تفسير الكشاف.

بمقابل الملاحظات التي أوردناها آنفا، لابد أن نشيد ببعض المزايا الكثيرة لتفسير الزمخشري ومنها على سبيل المثال: تسامح الزمخشري مع الفقهاء، فهو (معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفي)[٦٢] وكذلك لابد من الإشادة بموقفه من الإسرائيليات، فهو "مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ روي، المشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمها إلى الله سبحانه، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين، وإما أن ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريقة الإجمال، وهذا بالغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به"[٦٣].

وخلاصة القول حول تفسير الزمخشري بأنه أصبح "عمدة الناس على اختلافهم، بين مشايع له ومخالف، وعلى وفرة مخالفيه، وانقطاع مشايعيه، يرجعون إليه على أنه نسيج وحده في طريقته البلاغية الإعجازية، وفي غوصه على دقائق المعاني، وحسن إبرازها على طريقة علمية سائغة، بتحليل التركيب وإبراز خصائصه واعتباراته"[٦٤].

---

(٦٢) التفسير والمفسرون (١/ ٤٧٤) (مرجع سابق).

(٦٣) نفسه (١/٤٧٦-٤٧٧).

(٦٤) التفسير ورجاله لابن عاشور، ص (٨٥) (مرجع سابق).

المبحث الثاني:
(سيد قطب ومنهجه في التفسير)

بعد ثمانية قرون ونصف من رحيل الزمخشري عن هذه الدنيا (ت٥٣٧هـ) وكان قد ترك دويا هائلا وأثرا فاعلا في تفسير القرآن الكريم، مما جعل العلماء يقلدونه في منهجه، ومنهم من شرح تفسيره، وعلى رأس هؤلاء العلامة شرف الدين الطيبي، الذي كتب حاشية على الكشاف اعتبرها العلماء أفضل الحواشي على الكشاف[٦٥]، وذهب ابن خلدون إلى أنها أفضل من الكشاف نفسه كما سبق أن ذكرنا[٦٦]، وكانت هنالك - أيضا - جهود للسعد التفتازاني، وقطب الدين الرازي، والفاضل اليمني، وغيرهم أيضا، وكلها متأثرة بمنهج الزمخشري وتحوم حوله في بيان إعجاز القرآن، واستمر الأمر كذلك إلى أن جاء سيد قطب[٦٧] ليبدأ مسارا جديدا في تفسير القرآن الكريم، وهو مسار يعتمد اللغة

---

(٦٥) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة، (٢/١٤٧٨).

(٦٦) انظر ص (١١-١٢) أو متن الحاشية (٣٩).

(٦٧) انظر ترجمته في الكتب التالية:

١ - سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٢ - سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب، يوسف العظم، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ.

٣ - سيد قطب حياته وأدبه، عبد الباقي محمد حسين، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤ - سيد قطب الأديب الناقد، د. عبد الله الخباص، مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

٥ - سيد قطب من القرية إلى حبل المشنقة، عادل حمودة، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٦ - العالم الرباني الشهيد سيد قطب للعشماوي أحمد سليمان، ١٩٦٢م، بدون ذكر لمكان النشر.

٧ - سيد قطب: خلاصة حياته، منهجه في الحركة، النقد الموجه إليه،، محمد توفيق بركات، دار الدعوة، بيروت.

٨ - سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي، محمد علي قطب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ .

٩ -عبقري الإسلام سيد قطب، د. سيد بشير أحمد كشميري، دار الفضيلة، القاهرة.

١٠ - الأعلام، للزركلي، (٣/١٤٧-١٤٨)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.

والأدب في الدرجة الأولى ويتحلل من قيود البلاغة ومصطلحاتها التي كانت قد أدخلت على كتب التفسير بشكل فعال منذ عهد الزمخشري إلى وقت قريب. كذلك لم يكن منهجه معتزليا، وإنما كان سلفيا في تفسيره.

هاتان القضيتان هما الفارق الأساسي بين الزمخشري وسيد قطب. ولكن الرجلين يتفقان في أمور كثيرة، فكلاهما من علماء البيان، ويمتلكان الموهبة والذوق وناصية اللغة، وثقافتهما واسعة شاملة، وقد طافا في البلدان، وهما من العلماء العزاب، بيد أن الأساليب تختلف من عصر إلى آخر، فكيف بين اثنين تفرق بينهما عصور؟، وأسلوب سيد قطب أكثر سلاسة ومرونة وحيوية من أسلوب جار الله الزمخشري، وقد يعود ذلك إلى ما شهده النثر العربي من تطور كبير على يد أئمة البيان في العصر الحديث، وقد كتب سيد قطب تفسيره في الزنزانة ولقي الله شهيدا (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) بينما كتب الزمخشري تفسيره في حجر إسماعيل عند الكعبة المشرفة!، ونبدأ بتفصيل الحديث عن منهج سيد قطب في التفسير:

أولا: منهج سيد قطب في تفسير الظلال.

ذكرت آنفا أن منهج سيد قطب يتميز بأمرين اثنين:

الأول: اعتماده على اللغة والأدب، وساعده في ذلك موهبته وتمرسه في الكتابة والصحافة والتأليف نثرا وشعرا.

والثاني: السلفية، والمقصود بها اتباع مناهج المفسرين من أهل السنة، ورفض إقحام الإسرائيليات، أو ليّ أعناق النصوص كما فعل المعتزلة في تفاسيرهم لآيات الصفات ونحوها.

وأما بقية الأمور الأخرى التي قد تذكر في منهجية سيد قطب فإنما هي في مجملها منبثقة عن هذين الأمرين أو ثمرة لهما. فمثلا يرى الدكتور صلاح الخالدي أن الأسس المنهجية للظلال تتمثل في الآتي:

الواقعية الجدية في البحث.

المنهجية السلفية.

بيان دور الإنسان ومركزه.

الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول القرآن.

بيان تعامل الصحابة مع القرآن.

الاستشهاد للنص بالواقع التاريخي.

تصويبات في الفكر الإسلامي المعاصر، وتحليل حاضر العالم الإسلامي.

التأكيد على قضايا الدعوة والحركة.

مواجهة الماديات الجاهلية.

عرض النعم بمنظار جديد.

التفسير الجمالي للصور الفنية في القرآن.

العرض البياني المشرق.[٦٨]

بينما يرى الدكتور فهد الرومي أن الأسس المنهجية للظلال تتمثل فيما يلي:

الأسلوب الأدبي.

تذوق النص القرآني.

الواقعية الحركية.

التفسير الجمالي الفني.

استيحاء النص.

الوحدة الموضوعية.

ترك الإطناب حول ما أبهم في القرآن الكريم.

---

(٦٨) انظر: د. صلاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان، ص (٣٠٥-٤٠١) دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

التحذير من الإسرائيليات.

ترك الاختلافات الفقهية.

اجتناب الإغراق في المسائل اللغوية.

رفض التفسير العلمي[٦٩].

ولا بد من الإشارة هنا بأن سيد قطب لم يرفض التفسير العلمي على إطلاقه، وإنما رفض إخضاع آيات القرآن التي جاءت هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان لقوانين ونظريات لم يقطع العلم بصحتها، أو ربما أقر بها اليوم وأنكرها غدا، فكتاب الله أسمى من تتلاعب به أهواء البشر، وهو فوق الشبهات، وليس بحاجة إلى النظريات العلمية التي تثبته وتسانده، لأن النظريات والحقائق العلمية هي التي يؤيدها الدين الحنيف وليس العكس، لأن صحة الدين قطعية الثبوت عند المؤمنين به من الجيل الأول من الصحابة وإلى قيام الساعة.

وباحث ثالث هو الدكتور محمد إبراهيم الشريف يرى أن القواعد المنهجية للظلال تتمثل فيما يلي:

القاعدة الأولى: هي أن يأتي بإطلالة بين يدي السورة كالمقدمة لها، يوضح فيها أهداف السورة ومقاصدها، ويربط بين أجزائها وموضوعاتها ربط المتبصر بأسلوب القرآن وبلاغته.

القاعدة الثانية: هي تقسيم السورة إلى دروس أو مقاطع، يجمع كل درس أو مقطع منها فكرة عامة أو موضوع محوري، وتكون عدة المقاطع أو الدروس شوطا أو شطرا كاملا من أشواط السورة[٧٠].

ولدى التأمل بما كتبه هؤلاء الباحثون الأفاضل حول منهج سيد قطب نجد

---

(٦٩) انظر: د. فهد الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (٣/٩٩٨-١٠٥١)، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(٧٠) انظر: د. محمد إبراهيم الشريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر، ص (٥٨٤-٥٨٧) دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

تشابها بين ما ذكره الخالدي والرومي، وذلك لأن الرومي قد اعتمد في دراسته على ما ذكره الخالدي، وأما الشريف فقد عرض منهج سيد قطب بطريقة أخرى.. والحق أن الباحثين الثلاثة حاولوا وضع منهج لسيد قطب لم يقرره هو في مقدمة ظلاله، وإنما استنبطوه من خلال معايشتهم للظلال. وبعض ما عرضوه على أنه منهج قد يكون من سمات الظلال وليس من منهجه، والمقصود بالسمات: الصفات العامة لهذا التفسير، وما ذكره الدكتور الشريف أيضا ليس من منهج الظلال في شيء، وإنما هو أسلوب أو طريقة عرض المادة العلمية في الظلال. والأسلوب في الأصل هو طريقة الأداء أو التعبير التي تصاغ من خلالها الأفكار، وهذا أمر - يختلف بطبيعة الحال - عن المنهج... فالمقصود بالمنهج بيان كيفية تعامل سيد قطب مع الآيات القرآنية، كيف يفسرها؟ ما هي أدواته ومصادره وقواعده التي اتخذها في التفسير؟ كما يشتمل المنهج على أسلوب التعبير، وطرائق نظم الكلام أيضا، ومن ثم فإن كلمة منهج أعم من كلمة أسلوب، وعليه فلا يمكن أن نقول: إن تصويبات الفكر الإسلامي المعاصر، وتحليل حاضر العالم الإسلامي، والتأكيد على قضايا الدعوة والحركة، هي أمور منهجية في الظلال، نعم هي من الموضوعات التي تطرق إليها المؤلف في تفسيره... ولكنها ليست من المنهج... فالمنهج كما ذكرت هو آلية تحليل الآية والسورة، وكيف يتعامل معها المفسر... وهو في خطوطه العريضة لا يتجاوز الأمرين الأساسيين اللذين ذكرناهما، وهما اعتماده على طاقة اللغة الكامنة في التعبير القرآني، ومحاولة الاستفادة بأكبر قدر من إيحاءاتها ودلالاتها المركزية والهامشية على وجه الخصوص هذا أولا.

وثانيا: السلفية الواعية البصيرة، المتمثلة بالاتباع المستنير لهدى القرآن الكريم وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه أئمة السلف الصالح في خير القرون، وسوف نولي الأمر الأول مزيدا من التفصيل والدراسة؛ لأن مناط التجديد في الظلال يدور عليه. ونبدأ ببيان موقف سيد قطب من البلاغة والبلاغيين:

سيد قطب والبلاغيون القدماء:

عرف سيد قطب البلاغيين القدماء ودرسهم في كتابه (النقد الأدبي أصوله ومناهجه) وجعل إهداءه في كتابه النقد الأدبي موجها إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني. فما هي خلاصة آراء سيد قطب في هذا الصدد؟

ويقال في جواب السؤال السابق ما يلي:

كان موقفه سلبيا من الباحثين في البلاغة والإعجاز، حيث قال عنهم: "... ولكنهم شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى، أيهما تكمن فيه البلاغة، ومنهم من غلبت عليه روح القواعد البلاغية، فأفسد الجمال الكلي المنسق، أو انصرف عنه إلى التقسيم والتبويب، ووصلوا في هذا وذلك – في بعض الأحيان – إلى درجة من الإسفاف لا تطاق"[(٧١)].

يستثني سيد قطب من موقفه السابق رجلين من رجال البلاغة.

الأول: وهو الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وقد عده سيد قطب أفضل من اشتغلوا في البلاغة والنقد قديما وحديثا، وأشاد بنظرية النظم التي حسمت الخلاف في مسألة اللفظ والمعنى، وقد استغرقت من النقاد ما استغرقت منذ أثارها الجاحظ. واعترف بفضله، وقال: "ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة في النقد الفني"[(٧٢)].

والرجل الثاني: هو الزمخشري، ففي حديثه عن المفسرين الذين أهملوا البحث عن الجانب الفني في القرآن، استثنى الزمخشري من هذا الحكم حيث "كان يقع له بين الحين والحين شيء من التوفيق في إدراك بعض مواضع الجمال الفني في القرآن"[(٧٣)].

---

(٧١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص (٢٩)، دار الشروق، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
(٧٢) المرجع السابق، ص (٢٤).
(٧٣) نفسه، ص (٢٨).

وقد قسم سيد قطب مراحل فهم القرآن إلى ثلاث:

الأولى: مرحلة التذوق الفطري للفنون، وتشمل المعاصرين لفترة الوحي.

والثانية: مرحلة الإدراك لمواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلا مفردا، وتمتد من عهد الصحابة إلى العصر الحديث.

والثالثة: هي مرحلة إدراك الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن، وهي مرحلة لم يصلوا إليها أبدا، لا في الأدب ولا في القرآن[٧٤].

وهذه المرحلة كما يقول الدكتور صلاح الخالدي: "لم يمثلها إلا سيد قطب، وهذه الدراسة لم يقم بها إلا سيد قطب، على هدي هذا الهدف أرسى أسس بحوثه في مكتبة القرآن الجديدة، وقد وفق إلى كشف الطريقة العامة للتعبير القرآني والقاعدة الكبيرة فيه وهي التصوير الفني، ووفق في بيان سمات هذه الطريقة وألوانها"[٧٥].

ويقودنا كلام الدكتور الخالدي إلى البحث عن المقصود بالتصوير الفني في القرآن عند سيد قطب، فما هو التصوير الفني الذي اكتشفه سيد قطب؟

يقول سيد قطب في تعريف التصوير الفني: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل"[٧٦].

---

(٧٤) نفسه، ص (٢٥-٣٥).

(٧٥) د. صلاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص (١٢١)، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٧٦) التصوير الفني، ص (٣٦) (مرجع سابق).

هذه النظرية التي ابتدعها سيد قطب، وكتب الدكتورصلاح الخالدي حولها رسالته للماجستير بعنوان: "نظرية التصوير الفني عند سيد قطب" وذهب إلى أن سيدا هو الذي ابتكرها، يرى حولها باحث آخر وهو الدكتور محمد أبو موسى أنها مقتبسة من الزمخشري، يقول: "ولقد هدي الزمخشري إلى طريقة التشخيص والتجسيم، كما درس طريقة التخييل الحسي في أسلوب القرآن، وتنبه إلى أن القرآن يعتمد في بنائه هذه الوسائل التعبيرية، وأن هذه الوسائل هي الطريقة المفضلة في أسلوبه، ويقول: إن أكثر كلام الله سبحانه وكلام أنبيائه وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام، لجهلها بأدق علوم البيان، وكان أول من أدخل دراسة التخييل في محيط الدرس القرآني واستجاب في ذلك لحسه الرهيف، وإن أغضب علماء عصره، وقد حاول بعض المعاصرين . يقصد سيد قطب في كتابه التصوير الفني – كما ذكر في الحاشية – دراسة هذا الجانب في أسلوب القرآن، وذكروا أنه جانب لم يدرس، والحق أنني قرأت هذه المحاولات بإمعان، ولمحت فيها بصرا نفاذا، وأستطيع أن أرجع بأصولها وجزئياتها إلى دراسة الزمخشري"[٧٧].

والحق أن هذا الكلام يقودنا إلى التساؤل حول حقيقة العلاقة بين سيد قطب والزمخشري، وهل استفاد سيد قطب نظريته من الزمخشري؟ إنه من الصعب أن ننكر عدم تأثر سيد قطب بالزمخشري، رغم إشارته المتكررة له في الظلال، كما أنه من الصعب – أيضا – الحكم بأن سيد قطب أخذ نظريته من الزمخشري، فالزمخشري – كما سبق أن ذكرت – لم يهتم بالنص الكلي، وإنما فسر الآيات: واحدة تلو الأخرى، وكذلك لم يبرز الوحدة الموضوعية والخصائص العامة للتعبير القرآني، وإنما اهتم بنظم القرآن من خلال ترابط الجمل "فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشري يعني بيان الروابط والعلاقات بين الجمل، وكيف يدعو الكلام بعضه بعضا، وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض"[٧٨]. وأما سيد

---

(٧٧) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص (٤٦-٤٧) (مرجع سابق).
(٧٨) نفسه، ص (٢٣٦).

قطب فلم يكن اهتمامه منصبا على ما اهتم به الزمخشري وحده، وإنما بحث عن القاعدة العامة للتعبير القرآني، يقول: "إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل. القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض، فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال، فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب. ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز. وذلك توفيق لم أكن أتطلع إليه حتى التقيت به"[٧٩].

ويؤكد سيد قطب: أنه هو الذي اكتشف نظرية التصوير الفني، يقول: "لقد كان القرآن جميلا في نفسي، نعم. ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق، أما اليوم فهو عندي جملة واحدة، تقوم على قاعدة خاصة، قاعدة فيها من التناسق العجيب ما لم أكن أحلم به من قبل، ومالا أظن أحدا تصوره"[٨٠].

ونخلص مما تقدم إلى أن سيد قطب أفاد بلا شك من التراث البلاغي، واطلع على ما كتبه الزمخشري، واستفاد من ثقافته الواسعة، وذوقه المميز وحسه الأدبي المرهف، وطور من ذلك كله نظرية التصوير الفني في القرآن. فهي نظرية جديدة: من حيث شمولها، واتساقها، وتطبيقها على القرآن بكامله، وقديمة من حيث: مكوناتها الأولية وجزئياتها. فكأنما القدماء أعطوا سيدا البذرة فزرعها وسقاها ونماها، وهذا هو التجديد، لأن التجديد لا يكون من فراغ، وإنما ينطلق من قواعد وأسس يتم البناء عليها، ويأتي إكمال البناء بعد ذلك.

سيد قطب والمصطلحات البلاغية:

يرى الدكتور صلاح الخالدي أن سيد قطب "عرض المصطلحات البلاغية عرضا جديدا، لم يشغل نفسه في تعريفها وتقعيدها وتبويبها، وإنما عدها مباحث من فن القول. ولابد من توافرها في أي أسلوب أدبي بليغ"[٨١]. وما قاله الدكتور الخالدي يحتاج إلى تفصيل دقيق فنقول:

---

(٧٩) التصوير الفني، ص (٩) (مرجع سابق).
(٨٠) نفسه (١٠).
(٨١) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص (٣٧٤) (مرجع سابق).

أما أن سيد قطب لم يشغل نفسه في تعريف المصطلحات وتقعيدها فهذا صحيح.

وأما قوله (عرض المصطلحات البلاغية عرضا جديدا)، فهنا يجب أن نلحظ ثلاثة أمور:

الأول: أن المصطلحات البلاغية قليلة جدا عند سيد قطب مقارنة بغيره من المفسرين، وهو يميل إلى التحرر من وضع اصطلاحات جديدة[(٨٢)].

الثاني: أن بعض المصطلحات القديمة حافظ عليها، ولم يجدد فيها، ومن أمثلة ذلك قوله عند الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة/٢٢٣]: "وفي هذا التعبير ألوان من التناسق الظاهر والمضمر، ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة، وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص. وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجه الزوج، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح. وكل هذه الصور تنطوي تحت استعارة في بضع كلمات"[(٨٣)].

فهو في هذا النص استعمل من مصطلحات البلاغة: (الكناية، التشابه، الاستعارة) في موقعها الصحيح ولم يغير فيها.

الثالث: أنه عدل مدلولات بعض المصطلحات القديمة إلى مدلولات جديدة، فقد قال عند الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح/١٠]: "فالصورة صورة مبايعة بالأيدي، ولتنسيق الجو كله، جعل يد الله فوق أيديهم، واستخدم هذا التجسيم في موضع التجريد المطلق والتنزيه الخالص، وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا مراعاة النظير، ويعنون منه الجانب اللفظي، لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير، ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه، ونعني به جانب التناسق الفني في الصورة، للمحافظة على وحدة الرسم وعلى جو المشهد وعلى الانسجام العام"[(٨٤)].

---

(٨٢) انظر: التصوير الفني في القرآن، ص (١١٢، ١١٤) (مرجع سابق).
(٨٣) التصوير الفني في القرآن، ص (٩١) (مرجع سابق).
(٨٤) نفسه، ص (١٢٢).

الرابع: أنه عرض مضمون بعض المصطلحات القديمة دون لفظ المصطلح، من ذلك قوله عند الآيات: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة/ ١٢٧-١٢٩]. قال: "لقد انتهى الدعاء وانتهى المشهد وأسدل الستار. هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا، فالخبر: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل. وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد وضوحا لو فرضت استمرار الحكاية، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان ربنا... إلخ. إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة. وهذا هو الفارق الكبير. إن الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة. وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة... وذلك هو الإعجاز"[٨٥].

وما ذكره سيد قطب هو ما يطلق عليه في البلاغة القديمة مصطلح الالتفات، وقد أشار إليه الزمخشري في مطلع تفسيره، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[الفاتحة/ ٥] فقال: "فإن قلت: لم عدل من لفظ الغيبة إلى الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن؛ تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء

---

(٨٥) نفسه، ص (٥٧).

إليه، من إجرائه على أسلوب واحد "[٨٦]، والقرطبي يطلق على هذا النوع: تلوين الخطاب[٨٧]، وهو أعم من الالتفات.

ومن فوائد الالتفات: الإيجاز كما ذكر سيد قطب، وممن تنبه لهذا اللون البديعي العلامة ابن جني، وكان قد عرض له في باب سماه شجاعة العربية، ويقول في مقدمة هذا الباب: "اعلم أن معظم ذلك - أي شجاعة العربية - إنما هو الحذف والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف"[٨٨].

يلحظ هنا أن البلاغيين القدامى تنبهوا إلى الجمال في هذا الأسلوب، وكانت لهم إضافات أغنت مكتبتنا البلاغية، ولكن المتأخرين منهم غالبا ما يكتفون بذكر المصطلح البلاغي عند الآية. وأما سيد قطب فكان يتجاوز المصطلح، ليبرز نكت الجمال من خلال بيان رائع يوضح مضمون المصطلح وفائدته دون ذكره، وهذا هو السحر الحلال في البيان العربي!.

ننتقل الآن إلى الحديث عن الأمر الثاني في منهج سيد قطب وهو السلفية:

المنهج السلفي في الظلال:

يتمثل المنهج السلفي عند سيد قطب في أمور كثيرة منها:

١ - رفضه مذهب المعتزلة "فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي"[٨٩].

٢ - يرفض سيد قطب الدخول إلى القرآن بمقررات مسبقة، يقول: "من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها القرآن والحديث؟ إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره، وفي التصور الإسلامي وتكوينه، أن ينفض الإنسان

---

(٨٦) تفسير الكشاف، بتصحيح مصطفى حسين أحمد، (١/١٣-١٤)، طبعة دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

(٨٧) تفسير القرطبي (١٠/٢١٢)، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، بيروت.

(٨٨) الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (٢/ ٣٦٠)، دار الكتاب العربي، بيروت. وانظر أيضا: المحتسب لابن جني، تحقيق: علي الجندي، و الدكتور عبد الفتاح شلبي، (١/ ١٤٦)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٩م.

(٨٩) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٨٢) (مرجع سابق).

من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة. وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئا يثبته القرآن، ولا يؤوله، ولايثبت شيئا ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفى في القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته"[٩٠]

٣ - رفض سيد قطب الإسرائيليات والأساطير، يقول في حديثه عن الملكين هاروت وماروت: "وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها، وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى تفصيل أكثر، لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود، ولا أحب أن نجري نحن في ظلال القرآن خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصة الملكين، فليس هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها"[٩١].

٤ - رفض عقيدة وحدة الوجود التي يؤمن بها غلاة الصوفية، وقد عبر عن ذلك بقوله: "والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة: وحدة الوجود، على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح، أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة، أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده، أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس"[٩٢].

٥ - رفض البدع والخرافات التي علقت بأذهان المسلمين عبر العصور، والعودة إلى المنبع الأول، إلى القرآن الكريم، والسنة المطهرة التي تبينه وتشرحه.

---

(٩٠) المرجع السابق (٦/ ٣٧٣٠).
(٩١) نفسه (١/ ٩٧).
(٩٢) نفسه (١/ ١٠٦).

٦ - رفض المذاهب العلمانية المعاصرة التي ضيعت الإنسانية، وأفقدت الأمم هويتها... وقد سبق أن ذكرت له نصا يتضمن ذلك.

هذه هي السلفية بمعناها الكبير وخطوطها العريضة عند سيد قطب.

ثانيا: شهادة العلماء للظلال.

لقي تفسير الظلال رواجا في هذا العصر لا يقل عما لقيه كتاب الكشاف من رواج في عصره وقد ترجم إلى عدد من اللغات الحية في العالم، وأعيدت طباعته مرارا وتكرارا في اللغة العربية، وقد سجل العلماء إعجابهم بما صنع سيد قطب في الظلال، لما في الظلال من منهجية وتجديد وأصالة في آن معا، وسنكتفي بذكر بعض أقوال أهل العلم من المتخصصين بالتفسير في هذا الصدد:

١ - قال الدكتور عدنان زرزور عن سيد قطب بأنه: "أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السور القرآنية المفردة طالت أم قصرت، أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم رحمه الله، والذين سبقوا سيدا من المفسرين منهم من لم يلاحظها ولم يسلم بوجودها، ومنهم من ذهب إلى القول بها، ولكنه عجز عن ملاحظتها وتقديمها فيما كتبه للناس من تفسير لكتاب الله تعالى"(٩٣).

٢ - وقال الدكتور نور الدين عتر مشيدا بالظلال: "ولقد لفت هذا التفسير الفريد في هذا العصر . في ظلال القرآن . إليه الأنظار، لأنه استطاع أن يملك ناصية البيان الأدبي في عرض المعاني، وناصية الذوق الأدبي في فهم أسرار إعجاز القرآن، ثم المنطلق المعاصر الذي عني به، وهو إبراز إعجاز القرآن في فن التصوير، حتى إذا استطاع أن ينال الاعتراف به والإعجاب، إذ سبق وبادر لإثبات إعجاز القرآن وفق مقياس أدبي فني حديث. هو فن التصوير، وأن

---

(٩٣) د. عدنان زرزور، علوم القرآن، ص (٤٣١) المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

يقدم تفسيرا كاملا للقرآن يبرز فيه مصداق هذه النظرية "[٩٤].

٣ - وفي حديثه عن منهج التذوق الأدبي في التفسير، قال الدكتور فهد الرومي: "لم أكد أجد في الجادة إلا أثرا لقدمين هما لرجل واحد، تمشيان فيه بعزيمة وثبات، كأنما تسيران على خط شق لهما من قبل، بل كأنهما تسيران على نور البصيرة والبصر، وعدت أسائل نفسي: أ يعد طريق يبس إلا من قدمين اثنتين من مناهج التفسير؟ وكان جوابها وأحسبه حقا: أن المناهج كلها تبدأ كذلك، ثم يكثر سالكوها، وهي أول أمرها تعد منهجا. إذا لا تثريب عليّ إن اعتبرت تفسير سيد قطب رحمه الله تعالى منهجا في تفسير القرآن الكريم وحده "[٩٥].

٤ - ويقول الدكتور محمد إبراهيم الشريف: "وإذا ما كانت خلاصة الرأي في تجربة قطب أنها تفسير لذاته وليست تفسيرا للنص، فأحبب به من تفسير وأهلا بها من تجربة يلتحم فيها المفسر بالنص القرآني كأنهما وجها عملة واحدة، فإذا ما تأمل ذاته فكأنما يتأمل النص يتبين فيه مغزى التنزيل وحكمته، وما يكون فيه من مواعظ وعبر واهتداء، وإذا ما تجاوز تفسير النص إلى تعمق ذاته، فإنما لتدبر هذا النص وتأمله، وبيان أثر التأمل العقلي في نفسه أو النفس الإنسانية عامة، وهو المغزى العالمي الشامل الذي تدركه القلوب المتفتحة على الخير، والتي لا تكون عليها أقفالها "[٩٦].

٥ - وفي حديثه عن دراسة التناسب القرآني عند سيد قطب قال الأستاذ أحمد أبو زيد: "وقد كان أحسن من تعمق في هذا الباب، وإذا كان لأحد من المحدثين فضل في فتح أبواب جديدة لبلاغة القرآن، والكشف عن أوجه رفيعة من

(٩٤) د. نور الدين عتر: تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث. مقال منشور في مجلة الرابطة الإسلامية بمكة، العدد (٣٦٤) السنة (٣٣) صفر ١٤١٦/ يوليو ١٩٩٥م، ص (٢٧).

(٩٥) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٣/٩٨٦) (مرجع سابق).

(٩٦) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر، ص (٥٧٤-٥٧٥) (مرجع سابق).

التناسب في هذه البلاغة، فلهذا الرجل الذي ارتاد في دراسته آفاقا جديدة، فكشف النقاب عن أوجه من التناسب في النظم القرآني لم يكشف أحد عنها قبله "[٩٧].

إن هذه الشهادات - وهي من علماء متخصصين في الدراسات القرآنية واللغوية، وهم ينتمون إلى بلاد شتى ومذاهب فقهية مختلفة - لتؤكد على أهمية الظلال، وأنه تفسير هذا العصر بدون منازع، وذلك لما فيه من عناصر تجديدية أصيلة، سواء في أسلوب عرض، أو في منهج التعامل مع الدين، أو في كيفية الدفاع عنه والذود عن حياضه. ولكن هذا لا يعني أن الظلال بريء من المآخذ والملاحظات، فهو كسلفه الكشاف بقدر ما فيه من إثارة في عصره، بقدر ما كان عليه ملاحظات، ولكن الملاحظات على الظلال أقل، وهي في معظمها تتجه نحو الشكل وليس المضمون. فلم يكن سيد قطب ليلوي أعناق النصوص، ويلبسها آراءه كما فعل الزمخشري، لأن القرآن هو الذي شكل فكر سيد قطب حين رفض أن يتناول شيئا من غير مائدة القرآن، ولكن البشر يخطئون بطبيعتهم، فما هي أهم المآخذ على الظلال؟.

ثالثا: بعض المآخذ على الظلال:

بناء على ما كتبه المتخصصون في هذا المجال، نوجز أهم الملاحظات بما يلي:

١ - إيراد بعض الأحاديث الضعيفة من غير بيان درجتها، وينسبها أحيانا لغير كتب الرواية، وتخريجه الحديث أحيانا من غير الكتب المعتمدة في الحديث، ولعل ظروف سيد قطب كانت هي السبب في ذلك، فقد كان يكتب تفسيره في ظروف استثنائية صعبة.

---

(٩٧) أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ص (٤٩)، كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٢م.

٢ - يرى بعضهم أن سيد قطب يقع أحيانا في أساليب أدبية بحتة لم تهذبها العقيدة الصحيحة، وقد كتبها أثناء تأثره بالثقافة الأدبية، وقبل أن تصقل فكره الدراسة الشرعية، وفات عليه استدراكها بعد ذلك. وهذا الكلام قد يصدق على كتاب التصوير الفني، الذي كتبه سيد قطب في الأربعينيات، أما الظلال فقد كتبه بعدما تضلع بالعلوم الإسلامية وتشبع إسلاميا.

٣ - الاستطراد في أبحاث لا رابطة قوية لها بالآية التي يفسرها أحيانا.

٤ - تكراره الحديث عن بعض الموضوعات في الظلال.

٥ - عدم إيراده لبعض الروايات المأثورة أحيانا، عندما يفسر آية ورد في تفسيرها بعض الروايات والأحاديث.

٦ - عدم اتباعه طريقة موحدة في تسجيل دلالات الدرس وحقائقه وإيحاءاته، وعدم اتباعه طريقة موحدة في تفسير الآية.

٧ - عدم اتباعه طريقة موحدة في تفسير غريب القرآن[٩٨].

هذه هي المآخذ بعامة، على أن أهم مأخذين وجها إلى سيد قطب هما حول فكرة الحاكمية لله والأسلوب الأدبي. فقد ذهب بعضهم إلى أن فكرة الحاكمية لله فكرة لا أساس لها في الدين، وقد أقحمها سيد قطب في تفسيره[٩٩]. وقد رد هذا الزعم الدكتور يوسف القرضاوي فقال: "والشهيد سيد قطب كانت الأولوية عنده للعقيدة قبل النظام، ولتحقيق حاكمية الله في الأرض، وهو ما كرره وأكده غاية التأكيد في كتبه الكثيرة وبخاصة الظلال، وقد زعم بعض الناس أن فكرة الحاكمية فكرة مودودية قطبية، وهذا جهل وغلط، فهذا أمر اتفق عليه الأصوليون وصرحوا به في مبحث الحكم من علم أصول

---

(٩٨) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للدكتور فهد الرومي (٣/١٠٥٠-١٠٥١) (مرجع سابق). وفي ظلال القرآن في الميزان، للدكتور صلاح الخالدي، ص (٢٧٨-٣٠٤) دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٩٩) انظر: جمال البنا: ما بعد الإخوان المسلمين، ص (٨٤، ١٢٦، ١٢٧) دار الفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

الفقه: أن الحاكم هو الله، لا حاكم غيره، وأن الرسول الكريم مبلغ عنه، ومن عناصر التوحيد التي ذكرها القرآن ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ [الأنعام/١١٤]"(١٠٠).

وأما فيما يتعلق بالأسلوب الأدبي، فقد أراد بعض الناس التقليل من شأن الظلال بأنه كلام أدبي إنشائي، وليس كلاما علميا دقيقا، وقد ناقش هذه الفكرة ورد على هؤلاء الدكتور الخالدي فقال: "وقد نظر بعضهم في الظلال بهذا المنظار فوجد فيه عرضا حيا، وبيانا ساحرا، فحكم عليه بأنه كلام أدبي إنشائي عاطفي، لا يحمل من المعاني والأفكار شيئا، ولا يحوي من العلوم القرآنية شيئا، وجعل من ثم هذه المزية مأخذا على الظلال، وراح يغمز ويلمز صاحبه بها. وصاحب هذا المأخذ إنما يحشر نفسه في قالب ضيق من التأليف، وكأنه يرى أن حسن العرض وجودة السبك ومتانة الأسلوب وبلاغة التعبير، عيب يجب أن ينزه المؤلف الجاد، والمفكر الجاد، كتابه عنه... إنني وبهذه المناسبة أكاد أشترط الموهبة البيانية والممارسة الأدبية السابقة، والمعاناة الأدبية السابقة، والتمرس في فن الشعور وفن التفكير وفن القول وفن التعبير، قبل الإقدام على أي تأليف في أي جانب. من جوانب العلوم الإسلامية، حتى يكون تأليفهم موافقا للمواصفات البيانية، حتى يكتب له التأثير والقبول في أوساط القراء. لأن هذا الكلام لحن جميل، وقلوب العالمين مغناطيس"(١٠١).

على أن هذه المآخذ كلها لا تقلل من قيمة الظلال كتفسير فرض نفسه على الساحة في العصر الأخير لما فيه من سحر وتجديد وتأثير، مثلما فرض الكشاف نفسه في الماضي ولم يزل تأثيره باقيا حتى اليوم.

---

(١٠٠) د. يوسف القرضاوي: في فقه الأولويات، دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة، ص (٢٦٩) مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
(١٠١) في ظلال القرآن في الميزان، ص (٣٩٥. ٣٩٦) (مرجع سابق).

المبحث الثالث:

(إعجاز القرآن بين الزمخشري وسيد قطب)

بعد أن عرضنا موقف سيد قطب من البلاغة القديمة وما أضافه في تحليل النصوص، بقي هنالك أن نعرف موقفه من الإعجاز، وما أضافه بهذا الصدد مقارنة بالزمخشري.

نبدأ بالحديث عن الزمخشري، فقد صرح في تفسيره بإعجاز نظم القرآن في مواضع كثيرة، وهذا ما عليه جمهور الأمة، من ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [سورة طه/٣٨-٣٩] قال: "والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدي إليه من تنافر النظم، فإن قلتَ المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلتُ: ما ضرك لو قلتَ: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر، فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر"[١٠٢]

وتحدث عن عجز العرب عن المجيء بمثل القرآن، وذلك عند أول آية من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿الم﴾. حيث اتخذ من عجزهم عن المجيء بمثل القرآن دليلا على إعجاز القرآن وأنه من لدن حكيم خبير، فقال: "ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ – أي القرآن – من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز

---

(١٠٢) تفسير الكشاف، بتصحيح مصطفى حسين أحمد، (٣/٦٣)، طبعة دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م. (مصدر سابق).

الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر"(١٠٣).

وإلى هذا ذهب سيد قطب حيث قال في تفسير الآية السابقة ﴿الم﴾: "وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة. نختار منها أنها إشارة للتنبيه، إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملك أن يصوغوا من تلك الحروف مثله"(١٠٤).

ويرى سيد قطب أن سر الإعجاز لا يعلمه إلا الله، يقول: "والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعا، وهو مثل صنع الله في كل شيء، وصنع الناس، إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات، فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة، أو آنية أو أسطوانة، أو هيكلا أو جهازا، كائنا في وقته ما يكون.. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة، حياة نابضة خافقة، تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز، سر الحياة ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سره بشر، وهكذا القرآن، حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا، ويجعل منها الله قرآنا وفرقانا، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض، هو الفرق بين صورة الحياة وحقيقة الحياة"(١٠٥).

يبقى أن نشير إلى أن إضافة سيد قطب هنا تتمثل في شيئين:

الأول: إشارته إلى الإعجاز التشريعي، وعنه يقول: "أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشئ

---

(١٠٣) تفسير الكشاف (١/٣٧-٣٨) (مصدر سابق).

(١٠٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، (١/٣٧-٣٨)، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

(١٠٥) نفسه (١/٣٨).

الجماعة المسلمة الأولى هي هي ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان، لا. بل إن أعداءها التقليديين الذين كان يواجههم القرآن، ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم، هم هم، ووسائلهم هي هي..تتغير أشكالها بتغير الملابسات، وتبقى حقيقتها وطبيعتها، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى. كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح، وإدراك موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات، وتجد فيها معالم طريقها واضحة كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه، ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة، ونظام المجتمع، وقواعد التعامل الدولي، والسلوك الأخلاقي والعملي، وهذا هو الإعجاز"(١٠٦).

الثاني: إشارته إلى الإعجاز في نظم آيات التشريع، وأنه لا يقل جمالا عن غيره، بل هو أقوى. يقول عند آية المداينة من سورة البقرة: "إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه. بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة، والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد"(١٠٧).

وهذا القول له أهميته القصوى، لأن إبراز سحر البلاغة وعظمة الإعجاز في آيات التشريع يتغافل عنه الكثيرون بسبب صعوبته، فهو لا يمنحك معرفته إلا بعد كد وجهد، وليس الأمر كذلك في الآيات التي تعنى بالكون والقصص وغير ذلك، وهو أمر كان الباقلاني قد أشار إليه بإيجاز في حديثه عن وجوه

---

(١٠٦) نفسه (١/ ١٢٤).
(١٠٧) نفسه (١/ ٣٣٤).

إعجاز القرآن فقال: "إن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة، والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع"(١٠٨)، بيد أن دراسة هذا الجانب من وجوه إعجاز القرآن لم تلق حقها من الدراسة كما لقيته عند سيد قطب هنا.

وهكذا نجد أن قضية إعجاز القرآن شغلت اهتمام العلماء منذ القدم، وقد أسهم جار الله الزمخشري في إبرازها من خلال تفسيره وتبيانه لجمال القرآن وبلاغته في ذلك التفسير. كما أسهم سيد قطب أيضا في الكشف عن جمال القرآن وبيان إعجازه في العصر الحديث، وكانت محاولتاهما من المحاولات الرائدة عبر العصور، لما فيهما من جدية وعمق وشمول وتجديد، وهذا لايعني أنه ليس هنالك محاولات أخرى لكشف الإعجاز، وتبيان جمال القرآن، أو أن هنالك وجوها أخرى للإعجاز غير تلك التي تحدث عنها الزمخشري أو سيد قطب، فالمحاولات والاجتهادات لم تقف عبر التاريخ، ومنها في العصر الحديث على سبيل المثال محاولة الإمام محمد عبده ومدرسة المنار لمحمد رشيد رضا وغيرها، ولكننا نؤكد ما أقره أهل العلم بأن أبرز محاولتين في مجال اللغة والأسلوب هما محاولتا الزمخشري وسيد قطب(١٠٩).

وبعد أن بينا موقف سيد قطب من الإعجاز، نود أن نعرض نموذجا واحدا له في التفسير، يبين عن مدى تجديده وإضافته في مجال الفكر الإسلامي، وذهابه بالنص إلى حد يتجاوز مقالة القدماء، مما يعد إضاءة مشرقة تساعد القارىء في العصر الحديث على أن يقف وجها لوجه أمام القرآن، متجاوزا حدود الزمان والمكان، حتى كأن القرآن يتنزل الآن، ليعالج قضايانا المعاصرة في أواخر القرن العشرين، كما عالج قضايا الجاهلية الأولى، ونقلها النقلة

---

(١٠٨) إعجاز القرآن، تحقيق السيد صقر، ص (٤٤)، دار المعارف، الطبعة الخامسة.

(١٠٩) انظر ص (١٧-١٨) و (٢٧-٢٨) من هذا البحث حول آراء العلماء المتخصصين في هذين التفسيرين.

البعيدة قبل خمسة عشر قرنا. والنص يدور حول تفسير دعاء إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم/ ٣٥-٣٦] فماذا قال سيد قطب في تفسير الأصنام؟ قال: "إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار، أو أشجار، أو حيوان، أو طير، أو نجم، أو نار، أو أرواح، أو أشباح. إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله... والأصنام ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة، فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها. إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر، إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها، يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى، ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق، لتعبيد الجماهير وتذليلها. فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين، والقيم والموازين، والتصرفات والأعمال، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها، إذا رفعت القومية شعارا، أو رفع الوطن شعارا، أو رفع الشعب شعارا، أو رفعت الطبقة شعارا، ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت إرادة تلك الشعارات، أو بالتعبير الصحيح الدقيق إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات، كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله، فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر وخشبة، ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا....

والذين يظنون أنفسهم في دين الله لأنهم يقولون بأفواههم: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة

والشعائر والزواج والطلاق والميراث، بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله، وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله، ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم أرادوا أم لم يريدوا ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها، ونفذت مطالب هذه الأصنام.. الذين يظنون أنفسهم مسلمين وفي دين الله وهذه حالهم، عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم" (١١٠).

هكذا يتجاوز سيد قطب دلالة الأصنام الأولية التي تشمل الحجارة المنحوتة التي تعبد من دون الله، ليجعلها في الشعارات التي تعبد من دون الله. فإذا كانت طفولة العقل البشري في فجر التاريخ تجعله يتقبل عبادة الأصنام التي ينحتها الناس بأيديهم، وهو في العصر الحاضر يأبى قواعد اللعبة الوثنية لما حظي به هذا العقل عبر التاريخ من تجارب وخبرة وتطور في شتى العلوم، جعلته يلفظ عبادة هذه الأوثان، فإن هذا العقل نفسه مازال في حاجة إلى نقلة أخرى تجعله يرفض الدينونة لوثنية الشعارات المادية والإلحادية التي تصده عن خالقه الكبير. إن العقل البشري مازال طفلا في الأمور المعنوية المتعلقة بالشعارات والمذاهب الهدامة، أو بعبارة أدق مازال غافيا لم يصح بعد من غفلته، فما دام الإنسان يقبل العبودية لشعار يطرحه إنسان آخر مثله، ولو كان هذا الشعار يتنافى مع الدين الحق والفطرة السليمة والخلق القويم، ثم لا يجد غضاضة ولا حرجا في العبودية لهذا الشعار، فإن هذا لهو دليل على طفولة العقل أو نومته وتقبله لوثنية جديدة ليست أقل خطرا وضررا على مصير الإنسانية من الوثنية الأولى، بمثل هذا الشمول والسعة في فهم القرآن راح سيد قطب يتناول مستجدات العصر، وما طرأ على البشرية من تغييرات وأحوال، ويزن ذلك كله بميزان الإسلام، ويهيب بالمسلمين أن يعودوا لدينهم، ويصححوا مفاهيم الإسلام في نفوسهم، ليقوموا بعبء إنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهلية القرن العشرين.

---

(١١٠) في ظلال القرآن (٤/ ٢١١٤-٢١١٥) (مرجع سابق).

هذا النموذج الذي قدمناه يقدم إضاءة كبيرة لفهم سيد قطب للقرآن الكريم، ولما قام به من تجديد على صعيد التفسير، وربط مدلول الآيات التي تنزلت قبل أربعة عشر قرنا بالواقع المعاصر.

بعد هذا النموذج ننتقل إلى المبحث الرابع من مباحث البحث وموضوعه الموازنة بين نماذج من التفسيرين: الكشاف والظلال.

المبحث الرابع:
الموازنة بين نماذج من تفسير الكشاف وتفسير في ظلال القرآن

سنعرض أربع آيات قرآنية من سور مختلفة، ونعرض لما قاله الزمخشري أولا، ثم ما قاله سيد قطب بعد ذلك، لنتبين طريقتيهما في فهم القرآن، وبيان جماله، والكشف عن إعجازه، والتدليل على بلاغته. وهي تبين ما لهذين المفسرين من قصب السبق في هذا المضمار على وجه الخصوص.

١ - قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة/٢٦١].

قال الزمخشري في تفسير الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ لابد من حذف مضاف، أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. والمنبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات، كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقا يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر، فإن قلت: كيف صح هذا التمثيل والممثل به غير موجود؟ قلت: بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المقلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، ولولم يوجد لكان صحيحا على سبيل الفرض والتقدير. فإن قلت: هلا قيل: سبع سنبلات، على حقه من التمييز بجمع القلة كما قال: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف/٤٦]. قلت: هذا لما قدمت عند قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة/٢٢٨] من وقوع أمثلة الجمع متعاورة مواقعها. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق،

لتفاوت أحوال المنفقين. أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك[١١١]".

وقال سيد قطب في تفسير هذه الآية أيضا: "إن الدستور لايبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف، إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله، إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة: صورة الزرع، هبة الأرض أوهبة الله. الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة! أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيرا في الضمائر، إنه مشهد الحياة النامية. مشهد الطبيعة الحية. مشهد الزراعة الواهبة. ثم مشهد العجيبة في عالم النبات: العود الذي يحمل سبع سنابل. والسنبلة التي تحوي مائة حبة! وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء. إنه لا يعطي بل يأخذ، ولأنه لا ينقص بل يزاد، وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها، تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة، إن الله يضاعف لمن يشاء، يضاعف بلا عدة ولاحساب. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، ومن رحمته التي لا يعرف أحد منتهاها. ﴿والله واسع عليم﴾. واسع لا يضيق عطاؤه، ولا يكف ولا ينضب. عليم يعلم بالنوايا ويثيب عليها. ولا تخفى عليه خافية"[١١٢].

نلاحظ من هذا النموذج أن الزمخشري يولي عناية للمصطلحات البلاغية والنحوية أيضا، ويفترض القاريء أمامه يسأله ويحاوره، فيقول: فإن

(١١١) تفسير الكشاف (١/٣٠٦) (مصدر سابق).
(١١٢) في ظلال القرآن (١/٣٠٦) (مرجع سابق).

قلتَ..قلتُ.... أما سيد قطب فقد تحرر من هذا كله وعرض الآية كلها على أنها مشهد متكامل للبذل والنمو والبركة والعطاء.

٢ - قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة/٢٢-٢٣]. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لوكان منظورا إليه محال. فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء... والمعنى أنهم لايتوقعون النعمة والإكرام إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه "(١١٣).

يلحظ أن الزمخشري لوى عنق النص هنا، وأخرجه إلى معنى آخر متجاهلا ما ورد في السنة من أحاديث تؤكد رؤية أهل الجنة لله عز وجل، وهي تعاضد معنى الآية بأنها رؤية حقيقية وليست توقعا ورجاء كما أول الزمخشري. أما سيد قطب فقد أثبت الرؤية وقال: "وما لها لا تتنضر وهي تنظر إلى جمال ربها"(١١٤). ثم أفاض فيما فتح الله عليه عند هذه الآية العظيمة إلى أن قال في الأخير: "وإذن فقد كان جدلا ضائعا ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة، والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام. لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض، ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض، ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال"(١١٥).

في الموازنة عند هذا النموذج نجد أن الزمخشري عمد إلى التأويل، فرؤية الله عنده مستحيلة!، لذا صرف معنى الآية إلى معنى آخر مستخدما براعته

---

(١١٣) تفسير الكشاف (٤/٦٤٩. ٦٥٠) (مصدر سابق).
(١١٤) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٧١).
(١١٥) نفسه.

اللغوية ومقدرته البلاغية، وأما سيد قطب فيثبت الرؤية على مذهب السلف، ويرفض مذهب المعتزلة الذي يقحم العقل في أمور غيبية هي فوق ا ـيث تبدل الأرض والسماوات يوم القيامة بغيرها، فكيف لا يتبدل شكل الإنسان وطاقاته؟ والآثار كلها تدل على ذلك.

٣ - قال الله تعالى في شأن أحد المشركين[١١٦]: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم/١٦]. قال الزمخشري في تفسير الآية: "الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه. ولقد وسم العباس أباعر في وجوهها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكرموا الوجوه. فوسمها في جواعرها[١١٧].

وفي لفظ الخرطوم: استخفاف به واستهانة. وقيل معناه سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين فيها عن سائر الكفرة كما عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة بان بها عنهم. وقيل خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه. وقيل: سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعا فلا تخفى كما لا تخفى السمة على الخرطوم. وعن النضر بن شميل: أن الخرطوم: الخمر، وأن معناه: سنحده على شربها، وهو تعسف. وقيل للخمر: الخرطوم، كما قيل لها: السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشم"[١١٨].

---

(١١٦) اختلف في تحديد المقصود بهذه الآيات على أربعة أقوال ذكرها القرطبي، فقال: "يعني الأخنس بن شريق في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق، وقيل: الأسود بن عبد يغوث أو عبد الرحمن بن الأسود قاله مجاهد، وقيل: الوليد بن المغيرة عرض على النبي صلى الله عليه وسلم مالا، وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه، قاله مقاتل، وقال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام" تفسير القرطبي، (٩/٢٣١) صححه هشام سمير بخاري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

(١١٧) الجاعرة: ما حول الدبر، كذا في حاشية الكشاف.

(١١٨) تفسير الكشاف (٤/٥٧٦ - ٥٧٧) (مصدر سابق).

وقال سيد قطب: "معاني الخرطوم: طرف أنف الخنزير البري، ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه، والأنف في لغة العرب يكنى به عن العزة، فيقال: أنف أشم للعزيز، وأنف في الرغام للذليل.. أي في التراب. ويقال: ورم أنفه، وحمي أنفه. إذا غضب معتزا. ومنه الأنفة... والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير. الأول: الوسم كما يوسم العبد، والثاني جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير"(١١٩).

في هذا النموذج نلحظ استطراد الزمخشري في بيان معنى الخرطوم، ثم بيانه لبعض الأحكام الفقهية، أما سيد قطب فلم يتجاوز النص... وأخذ أقبح صورة لمعنى الخرطوم، وفسر الآية بموجبها. والحقيقة أن معنى الآية هنا يتوقف على كلمة الخرطوم، وقد عدت إلى لسان العرب فوجدت فيه: "الخرطوم: الأنف..وقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ قال ابن سيده: وعندي أنه الأنف، واستعاره للإنسان، لأن في الممكن أن يقبحه يوم القيامة فيجعله كخرطوم السبع،... وقال أبو العباس: هو من السباع الخَطْم والخرطوم ومن الخنزير الفِنْطيسة، ومن ذي الجناح المنقار.. والخرطوم للفيل وهو أنفه"(١٢٠).

والحاصل أن الخرطوم مستعار للأنف، وكأن ذاك الكافر الذي تجرد من إنسانيته فصار حيوانا كالخنزير أو الفيل يعيش على هذه الأرض، هو ينتظر ضربة الله القاضية التي تكف أذاه، وتذله، وتذهب بغطرسته وكبريائه، وهي آتية من الملك القدير. آتية في الدنيا قبل الآخرة، حيث ضرب الوليد بن المغيرة(١٢١) على أنفه يوم بدر، وهنالك العذاب الخالد ينتظره في الآخرة.

٤ - قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة/٩٣] قال الزمخشري: "أي تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الثوب الصبغ، وقوله ﴿في قلوبهم﴾ بيان لمكان

---

(١١٩) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٦٤) (مصدر سابق).

(١٢٠) ابن منظور: لسان العرب، مادة (خرطم) (مصدر سابق).

(١٢١) هو أحد المقصودين بالآية على أحد الأقوال كما سبق ذكر ذلك.

الإشراب كقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء/ ١٠]، بكفرهم: بسبب كفرهم"[١٢٢].

وقال سيد قطب: "فأما الصورة الغليظة التي ترسمها﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فهي صورة فريدة. لقد أشربوا. أشربوا بفعل فاعل سواهم. أشربوا ماذا؟ أشربوا العجل! وأين أشربوه؟ في قلوبهم! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة: صورة العجل يدخل في القلوب إدخالا، ويحشر فيها حشرا، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه شرابا في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر... إنه التصوير ... السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل"[١٢٣].

في هذا النموذج فسر الزمخشري الآية بإيجاز، وأتى بتشبيه ليوضح معنى قوله تعالى ﴿وأشربوا﴾ ولم يتوسع بالشرح لهذه الصورة البيانية الجميلة. وأما سيد قطب فقد أدى المعنى بصورة مفصلة مسهبة... فأشار إلى أهمية بناء الفعل (فأشربوا) للمجهول، ثم إلى حسية الصورة وعنفها وغلظها، وأنها تعبير عن حالتهم النفسية التي تفانت في حب العجل، وبين أن ذلك من سمة التعبير القرآني....

وهكذا نجد أن سيد قطب يعيش في جو الآية، ولا يغادره إلى مبحث لغوي أو فقهي أو غيره إذا لم يكن هنالك حاجة ماسة إليه، وهو منهج مغاير لما نجده عند الزمخشري وكثير من المفسرين مثل الفخر الرازي والآلوسي وغيرهم، حيث يأتون باستطرادات كثيرة يقحمونها في التفسير من غير أن تكون هنالك حاجة ماسة إليها أحيانا، والسبب في ذلك هو اختلاف الزمن والبيئة والظرف، فلكل تفسير غرضه ومنهجه، ولكل تفسير بيئته وزمانه.

---

(١٢٢) تفسير الكشاف (١/ ١٦٦) (مصدر سابق).
(١٢٣) في ظلال القرآن (١/ ٩١-٩٢) (مرجع سابق).

وكذلك يمتاز سيد قطب بسلاسة العبارة والتمسك بمذهب الجمهور، والبعد

عن المصطلحات والتقعيد.. وهذا ما لا نجده عند الزمخشري، فقد كان الزمخشري بعكس ذلك تماما، حيث سعى إلى تقعيد مباحث البلاغة من خلال تفسيره للكتاب العزيز.

الخاتمـــة

نوجز هنا أهم ما قمنا به وأبرز النتائج.

استعرضت في التمهيد تعريف التفسير والتأويل، ومصادر المفسر، ومناهج التفسير، والتجديد في التفسير، وقضية الإعجاز وصلتها بالتفسير، والضوابط في التفسير. بعد ذلك انتقلت للحديث عن الزمخشري ومنهجه في التفسير، وذكرت أنه يقوم على دعامتين: البلاغة والاعتزال، واستعرضت نماذج من تفسيره تدل على الاعتزال، وأخرى تدل على البلاغة، وبينت موقف العلماء من منهجه، وما تميز به تفسيره من تجديد، وما عليه من ملاحظات.

ثم انتقلت للحديث عن سيد قطب ومنهجه في التفسير، وذكرت آراء العلماء في منهجه، ثم بينت رأيي فيما قالوه، وذكرت أن منهجه يقوم على دعامتين: الأولى اعتماده اللغة والأدب، والثانية السلفية. ثم فصلت في الحديث عن المنهج، وتحدثت عن موقفه من البلاغيين والبلاغة، ونظرية التصوير الفني التي ابتكرها. وأوضحت بعد ذلك معنى السلفية في الظلال، وأنها إطار عام وليست وضعا مخصوصا أو نموذجا محددا. وبينت موقف العلماء من تفسير الظلال، وما كان على هذا التفسير من ملاحظات. ثم تناولت قضية الإعجاز بين الزمخشري وسيد قطب، وإضافة سيد قطب في هذا المجال متمثلة في الإعجاز التشريعي. والإعجاز في نظم آيات التشريع. ثم استعرضت نموذجا له يبين ماله من إضافة، حيث قام بربط مدلول آيات القرآن الكريم بواقعنا المعاصر متجاوزا حدود الزمان والمكان، وموسعا للدلالات الهامشية للمفردات القرآنية... وبذلك كان تفسيره عصريا تجديديا مع المحافظة على الأصالة والعمق التاريخي لنظم القرآن. واستعرضت بعد ذلك نماذج من تفسير الكشاف والظلال توضح طريقة كل منهما، ووازنت بينهما موضحا الفروق بين المنهجين.

ولا يسعني في هذه الخاتمة إلا أن أشير إلى أن هذا البحث كبير جدا، وأن ثمة رسائل علمية كثيرة كتبت حول سيد قطب والزمخشري، مما يجعل الإحاطة

والتفصيل أمرا صعبا في بحث علمي موجز.. ولكن الموازنة بين سيد قطب والزمخشري ما قام بها أحد حسب علمي، على الرغم مما بين الرجلين وتفسيريهما من تشابه كبير واختلاف كبير أيضا. فكانت هذه الدراسة الموجزة لتسد ثغرة، ولعلها تكون نواة لدراسة أوسع في المستقبل إن شاء الله.

وأهم النتائج التي توصلنا إليها في البحث: أن دراسة كتاب الله المعجز لم تتوقف عبر التاريخ، وأن الزمخشري وسيد قطب من أقطاب الدراسات اللغوية والأدبية في الدراسات القرآنية والتفسير. وأنهما يتفقان في الاتجاه الأسلوبي والأدبي، وقد جددا في مضمار التفسير في جانب اللغة والأدب، وفتحا الأبواب واسعة لمن أراد أن يدرس بلاغة القرآن، وإعجازه، ويبحث عن جماله، ودلالات ألفاظه في بعدها الزمني وتطورها الدلالي، بيد أن لكل واحد منهما منهجا يميزه عن صاحبه. ويختلفان في الاتجاه الفكري، فالأول معتزلي والثاني سلفي. وقد انعكس هذا على تفسيريهما وطريقة تعاملهما مع الآيات القرآنية تفسيرا وتأويلا، وأهم من هذا كله... أن جمال هذا الكتاب الخالد لا ينتهي، وفيضه لا يقف عند حد، والعلماء في كل عصر إنما يرشفون من فراته بقدر طاقاتهم، وبقدر ما تهبهم القدرة الإلهية من توفيق وتسديد. وهذه المنح الإلهية لعباده الأخيار هي التي يعول عليها في التجديد والعطاء. إن القرآن الكريم كتاب كل عصر... صحيح أنه قديم في لفظه ونصه، ولكنه متجدد في فيضه ومدده، فهو شمس المعرفة... وكما أن شمس السماء قديمة النشأة .. ولكن تجددها الدائم هو الذي يمنحنا البقاء على هذه الأرض... كذلك شمس القرآن هي التي تمنح هذه الأمة الثبات والبقاء على مر العصور بما فيها من تألق وطاقة ومضاء، فلنهب أنفسنا للقرآن، يهب لنا الله من رحمته. والله ولي التوفيق.

(المصادر والمراجـع)

- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق عصام حرستاني ومحمد إبراهيم الزعلي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن جني، المحتسب، تحقيق: علي الجندي، و الدكتور عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٩م.
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م، دار القلم بيروت.
- ابن كثير، البداية والنهاية مطبعة السعادة، مصر.
- ابن منظور، لسان العرب،، دار صادر – بيروت.
- أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.
- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٢م
- أحمد أمين، ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، الطبعة الثالثة.
- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد صقر، دار المعارف، الطبعة الخامسة.
- البغوي، تفسير معالم التنزيل، تحقيق محمد النمر مع آخرين، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م
- جمال البنا: ما بعد الإخوان المسلمين، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م
- حاجي خليفة، كشف الظنون، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
- الخطابي، رسالة بيان إعجاز القرآن، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت

- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، خرج أحاديثه مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م
- الزركلي، الأعلام،دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م .
- الزمخشري، تفسير الكشاف، صححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- بالإضافة إلى طبعة دار الكتاب العربي، بتصحيح مصطفى حسين أحمد، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.
- السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- د. سيد بشير أحمد كشميري، عبقري الإسلام سيد قطب، دار الفضيلة، القاهرة.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.
- السيوطي، بغية الوعاة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- د. صلاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- د. صلاح الخالدي، في ظلال القرآن في الميزان، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
- د. صلاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الطوفي، الإكسير في علم التفسير، تحقيق د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.

- عادل حمودة، سيد قطب من القرية إلى حبل المشنقة، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- عبد الباقي محمد حسين، سيد قطب حياته وأدبه، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- عبد الرحمن بن قاسم النجدي، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
- د. عبد الله الخباص، سيد قطب الأديب الناقد، مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- د. عدنان زرزور، علوم القرآن، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- العشماوي أحمد سليمان، العالم الرباني الشهيد سيد قطب، ١٩٦٢م، بدون ذكر لمكان النشر.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م
- د. فهد الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، بيروت، وطبعة أخرى صححها هشام سمير بخاري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م
- د. كامل سعفان، هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآني، دار الفضيلة، القاهرة.
- د. محمد إبراهيم الشريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- د. محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م
- محمد توفيق بركات - سيد قطب: خلاصة حياته، منهجه في الحركة، النقد الموجه إليه، دار الدعوة، بيروت.
- د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة.
- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م
- محمد عليان المرزوقي، حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف، مطبوعة مع الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- محمد علي قطب، سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ .
- محمد الفاضل ابن عاشور: التفسير ورجاله، دار الكتب الشرقية، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، دار الكتب العربي، بيروت.
- د. مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م.
- د. نور الدين عتر: تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث. مقال منشور في مجلة الرابطة الإسلامية بمكة، العدد (٣٦٤) السنة (٣٣) صفر ١٤١٦/ يوليو ١٩٩٥م، ص (٢٧).
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء دار المأمون، الطبعة الأخيرة.
- يوسف العظم، سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ.
- د. يوسف القرضاوي: في فقه الأولويات، دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م